دور العرب الليبيين في مقاومة الغزو الفرنسي

في بلدان الحزام جنوب الصحراء بالقارة الإفريقية

مقتطفات من مجلة دراسات إسلامية

من إعداد : بول مارتي

ترجمة

الدكتور محمد عبد السلام العلاقي



جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

دور العرب الليبيين في مقاومة الغزو الفرنسي

في بلدان الحزام جنوب الصحراء بالقارة الإفريقية

1918 ـ 1843

مقتطفات من مجلة دراسات إسلامية

من إعداد «بول مارتي»

ترجمة

الدكتور محمد عبد السلام العلاقي



جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

الطبعة الأولى

1369 من وفاة الرسول ﷺ الموافق 2001 مسيحي

رقم الإيداع المحلي: 3972/ 2001 دار الكتب الوطنية بنغازي

رقم الإيداع الدولي: ردمك 3 - 023 - 28 - ISBN 9959



جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

مدخـــل

تتميز الدراسات التاريخية حول الاستعمار الفرنسي في أقاليم إفريقيا الغربية والوسطى وفي بلدان الصحراء التي كانت تسمى آنذاك بالسودان بندرتها وبقلة اعتمادها على الوثائق الرسمية الصادرة عن السلطات الاستعمارية. فقد نجحت الدراسات الغربية في فرض صورة محددة عن الفترة الاستعمارية في هذه البلدان الإفريقية التي تدين بالإسلام، والمجاورة لبلدان شمال إفريقيا وركزت في أبحاثها على الجوانب العسكرية وأحياناً التبشيرية للاحتلال الاستعماري، متجاهلة الدور الخطير الذي قام به عدد من أعوان الاستعمار الفرنسي والمتمثل في إجراء نوع من المسح الشامل للمكونات المادية والبشرية والثقافية للأقاليم والمقاطعات الإفريقية التي احتلها المستعمر، ذلك أن الكشف عن هذه الأساليب من شأنه أن يزيد من تعرية وفضح الممارسات الاستعمارية الرامية إلى سلب أهالي هذه المناطق الإفريقية مقومات هويتهم وشخصيتهم الثقافية.

وفي هذا الصدد يعد النص الذي نقدمه مترجماً نموذجاً لهذا الأسلوب الاستعماري في تتبع ورصد كل الوقائع والحقائق حول المستعمرات الفرنسية في النيجر وتشاد وأواسط إفريقيا، فقد اهتم كاتبه وهو بول مارتي بدراسة كل

جوانب الحياة المادية والروحية والثقافية في مستعمرة النيجر الفرنسية، فتعرض لدراسة كل المدن والمراكز الهامة في هذه الأقاليم، كما أشار إلى أهم الشخصيات المحلية فيها، وبعد أن عرض للبنية القبلية لهذه المجتمعات البنيوية والصحراوية تناول الكاتب الجوانب الدينية فقام بوصف العقائد والفرائض والأعياد الدينية والطرق الصوفية. ثم تعرض للتعليم فقدم معلومات وافية عن المعلمين والمستخدمين، وعن المدارس وطرق التعليم وعن السياسة التعليمية الاستعمارية التي ينادى بها.

وفي مجال تأثير الإسلام في المجال الاجتماعي قدّم بول مارتي دراسة مستفيضة عن الطفل وعن الختان والتسمية والزواج والدفن والمسكن والتغذية واللباس والمرأة والأسرة إلى غير ذلك. لكن تجدر الإشارة إلى أن معلوماته عن الإسلام في هذه البلدان الإفريقية تفتقر أحياناً إلى الدقة. ولعل ذلك راجع إلى شعور بول مارتي بالدور البارز الذي كان الإسلام يلعبه في مقاومة التغلغل الاستعماري الفرنسي في المنطقة. لذلك فإن بول مارتي حاول في عرضه هذا طمس الحقائق التي تضايق سياسة بلاده الاستعمارية في مناطق إفريقيا العربية والصحراء، ولهجته المتشددة مثلاً ضد الطرق الدينية هي خير دليل على أن السلطات الاستعمارية الفرنسية قد أدركت آنذاك أن هذه الطرق كانت تمثل أكبر خطر على الاستعمار الفرنسي في المنطقة لأنها كانت تجسد المقاومة الحقيقية في وجه المستعمرين والغزاة الأجانب.

ومن هنا نرى سرد بول مارتي للواقع الإسلامي في إفريقيا مجسداً في مثال النيجر دون أن يمرّ بالمراحل التاريخية التي ربطت العرب بالأفارقة من خلال الدين الإسلامي، ودون أن يكون فيها طرف سيّداً لطرف آخر حيث كانت العدالة والمساواة هي التي جعلت الإسلام ينتشر دون مدفع أو رشاش خلافاً لما فعله الفرنسيون إبان غزوهم لإفريقيا ومحاولة تمسيح المسلمين الأفارقة، كذلك لم يشر الكاتب كما أشار بعض الضباط الفرنسيين في كتبهم إلى عداوة

الفرنسيين للعرب ولغتهم حينما منعوها في مدارسهم بحجة التخلص من لغة أنصار محمد الاستعباديين. والواقع يثبت أن الغزو الثقافي الذي قام به الفرنسيون في مناطق احتلالهم والذي يهدف أساساً إلى سلب عقلية المواطن الإفريقي وإلى جعله أسير أهدافهم المستقبلية، كذلك لم يشر الكاتب إلى الهدف الاستعماري الفرنسي الرامي إلى فصل إفريقية الشمالية العربية عن إفريقيا السوداء وضرب الامتداد العربي الإفريقي الذي حدث طبيعياً من خلال توجيه الاقتصاد الذي كانت قوامه حركة القوافل التجارية الرابطة بين شمال وأواسط إفريقيا.

كذلك أيضاً لم يشر بول مارتي إلى دور العرب الليبيين في المنطقة علماً بأن وجودهم كان قبل وجود الطريقة السنوسية الدينية في بوركو وزندر وكانم وبئر علالي وغيرها.

كانت القبائل العربية القادمة من طرابلس عام 1843إفرنجي هي القبائل المتحالفة مع عبد الجليل سيف النصر شيخ قبيلة أولاد سليمان الذي قتله الأتراك، بعد هذه الهزيمة قرر ابنه محمد سيف النصر أن يغادر طرابلس ويرحل بأتباعه نحو بلدان الجنوب، ثم بوركو وكانم. أما القبائل العربية الأخرى القادمة من طرابلس والحليفة لأولاد سليمان فمنها من لا يقيم في كانم بصفة منتظمة مثل الحساونة والفرجان، أما المغاربة فقد استوطنوا كانم قبل أولاد سليمان، والمتتبع للسياسة الفرنسية الإفريقية الإسلامية يجد أنها تتوزع على فترتين أساسيتين: الأولى وتمتد من عام 1895 إلى 1911إفرنجي، وهي فترة حذر من الإسلام كلما شعرت أن ثمة ما يتهددها منه. أما الفترة الثانية فتبدأ بواكيرها في عام 1906إفرنجي وتتضح معالمها سنة 1911إفرنجي وهي فترة يغلب عليها الحذر والرقابة والقمع، وكذلك قامت بتدمير الوعي الإسلامي والترابط العربي مع الأفارقة بحجة حماية الأقليات.

ملاحظـة :

بلاد السودان

العرب هم أول من أطلق كلمة السودان على الأقوام التي تسكن جنوب الصحراء الكبرى. تنقسم بلاد السودان إلى ثلاثة أقسام هي :

1 ـ السودان الغربي، ويشمل حوض السنغال الآن وغامبيا، وبوركينا فاسو، والنيجر الأوسط.

2 ـ السودان الأوسط، وهو يشمل المناطق المحيطة ببحيرة تشاد.

3 ـ السودان الإفريقي، وهو يمثل مناطق النيل وروافده، جنوب بلاد النوبة.

أ ـ التاريخ لا يعيد نفسه لكن أحداثه تتشابه وينطبق هذا المثل تماماً على الصراع الذي يجري من حين إلى آخر بين ليبيا والاستعمار الفرنسي في التشاد، وليس هذا الصراع مهماً لما اكتسى من أوجه مختلفة بل هو امتداد للصراع الذي اندلع عندما شرعت فرنسا في استعمار إفريقيا، ورأت أن القبائل العربية وانتشار الدعوة الإسلامية كانتا تمثلان خطراً كبيراً على مصالحها وأهدافها في دول الساحل الإفريقي. ويعترف المؤرخون أن ليبيا كانت، ومنذ القدم تلعب دوراً رئيسياً في إفريقيا الوسطى المتمثلة في تشاد والنيجر ونيجريا ومالي والسنغال.

إن هذه العلاقات تعود إلى ما قبل الميلاد بقرنين أو ثلاثة، وازدادت هذه العلاقات رسوخاً عندما جاء الإسلام وأصبحت ليبيا معبراً مهماً تمر منه القوافل التجارية التي قامت بنشر الإسلام في هذه القارة. هذا الدين الذي تصدى له الغرب بحروب صليبية ومؤامرات أدت في النهاية إلى القضاء على الممالك الإفريقية الإسلامية وإضعاف الإمبراطورية التركية والقضاء عليها ببتر أطرافها ثم تدمير قلبها العربي. وقد سمح هذا للدول الأوروبية أن تعقد مؤتمر برلين سنة 1884 لتقسيم إفريقيا والتصدي للإسلام الذي نشره العرب بالمعاملة الحسنة والاختلاط الاجتماعي.

من هنا نجد أن الدور الذي كانت ليبيا تقوم به في تلك المناطق هو مقارعة الاستعمار الفرنسي الذي ركز امبراطوريته على مستعمراته الإفريقية، وأراد أن يرسم خطاً يفصل الوطن العربي في الشمال الإفريقي حتى لا يتهدد وجوده في الأمد البعيد بحيث لا يضر بمصالحه، وتحدد النشرة العسكرية الفرنسية الصادرة في 1932 في عددها الصادر في شهر أكتوبر أن إقليم الصحراء الذي يمتد من الشرق إلى الغرب ومن الأطلس إلى البحر الأحمر على مسافة طولها من 7 آلاف إلى 8 آلاف كم، تضم أقاليم تقع في كل من المغرب والجزائر وليبيا والحوض المصري والسوداني وحوض السنغال والنيجر وتشاد وأعالي النيل[1].

ومن هذا الوصف لإقليم الصحراء وضعت فرنسا خططها لفصل العرب عن الأفارقة، جاء في تقرير كتبه العقيد لاجور قائد القوات الفرنسية (رغم ضماناتنا الحدود الدولية فإن إفريقيا السوداء الفرنسية بات يهددها الإسلام)[2].

كان هذا الخوف لا يبرره إلا التكالب على المصالح الاقتصادية والأطماع الاستعمارية، حيث كتب أوغست تيريي رئيس لجنة إفريقيا الفرنسية في المجلة الجغرافية «هناك أحداث جرت في التخوم الصحراوية لمناطق نفوذنا عبر الخط الممتد من موريتانيا حتى التشاد، يجب إرسال قوات لتعزيز مراكزنا في كل من موريتانيا وتمبكتو وشمال شرق التشاد، وإن بعض البدو الرحل يقومون بالإغارة جبال تيبستي وبوركو، وكذلك نوايا السنوسيين غير واضحة تجاه وداي[3].

ويتضح من ذلك أن فرنسا كانت متخوفة جداً من احتلال تشاد رغم معاهدة برلين في اختيار الطريق التي تصل بواسطته إلى بحيرة تشاد. وفي يوليو

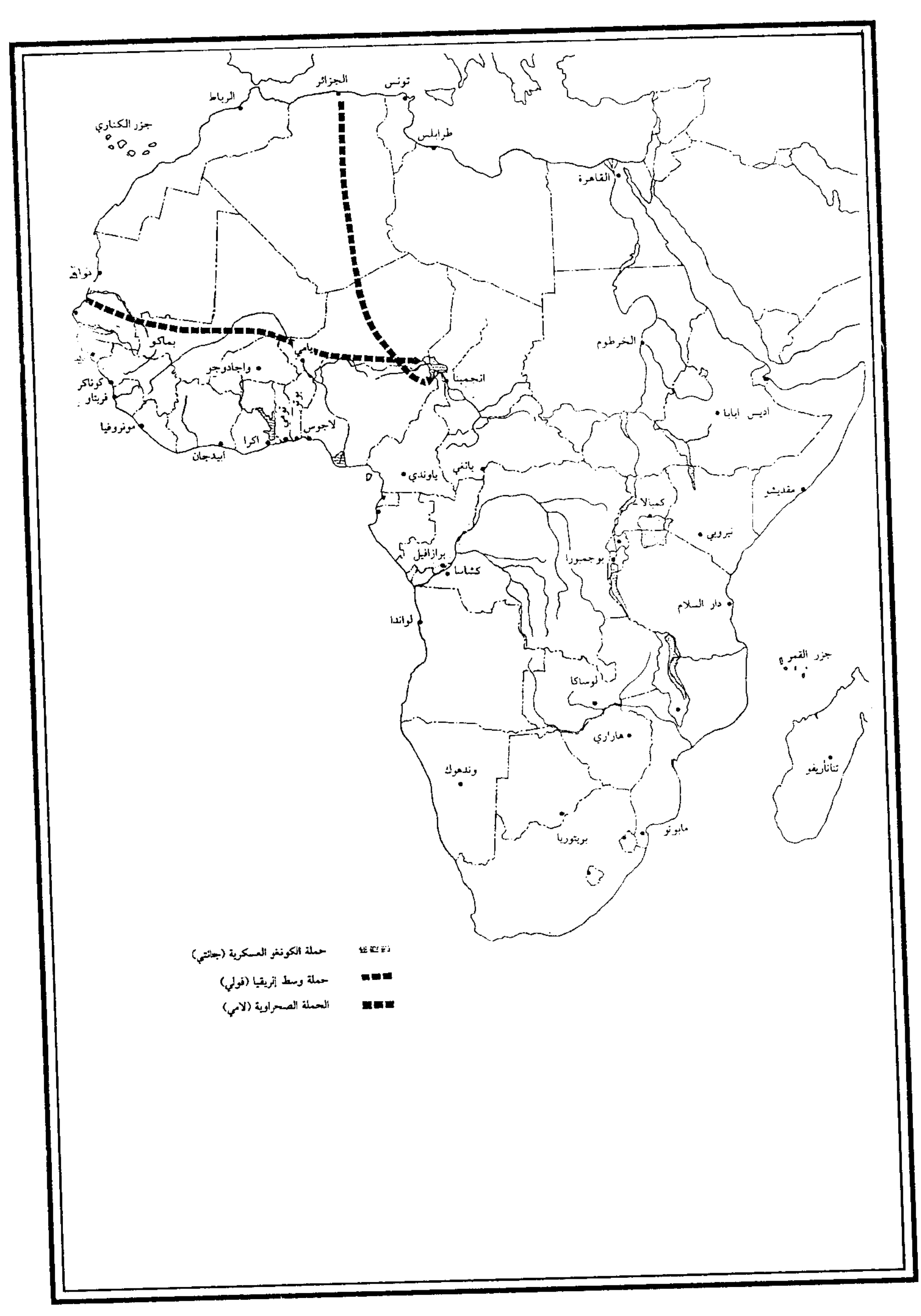
---

(1) النشرة العسكرية الفرنسية، عدد 102، شهر 1932، باريس ـ مكتبة فانسان العسكرية.

ـ دول الساحل الإفريقي، نعني بها إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، حيث دار صراع عربي أوروبي كانت ليبيا رائدة هذا الصراع.

(2) أميل جانني، غزو تشاد، المجلد الأول، باريس، مكتبة فانسان العسكرية، ص51.

(3) نفس المصدر، المجلد الأول، ص51.



الغزو الاستعماري الفرنسي لتشاد

1895 اختار الضابط إميل جانيتي(*) طريق أوبانقي وشاري حيث كان يريد تعويض خسارة الألزاس واللورين باحتلال أراض في إفريقيا[1].

غير أن فرنسا قبل أن تتمكن من بسط نفوذها على تشاد والنيجر أرسلت ثلاث بعثات عسكرية سنة 1899إفرنجي للسفر إلى بحيرة تشاد، الأولى من الجنوب الجزائري برئاسة الرائد لامي، والثانية القادمة من مالي والنيجر بقيادة فولي أما الثالثة فكانت بقيادة إميل جانيتي القادم من الكونغو، والذي نجح في توقيع معاهدة حماية مع الملك الباقرمي.

واجهت قوات السلطان رابح هذه الحملات بكل ما تمتلك من قوة لصد القوات الفرنسية الغازية، لأنها ـ من أجل مصالحها ـ وحليفتيها ألمانيا وانجلترا يهمهم القضاء على هذا الوجود العربي الإسلامي.

وفي هذا الصدد يقول هنري مونيو: في عام 1890 جاء وقت الصدام مع القوات الأوروبية لأن منطقة تشاد تشكل أهمية للأوساط الاستعمارية الفرنسية. أما بريطانيا وألمانيا فلهما مصالح في الكاميرون ونيجيريا، وبذلك تم الاتفاق بين القوى الثلاث على تقسيم المنطقة عام 1890[2].

ومن خلال هذا التعاون الاستعماري ضد إمبراطورية السلطان رابح الذي قام بدور كبير في نشر الإسلام وبث الطمأنينة، قام بتغيير طرق التجارة القديمة وأعطى الأولوية للتجارة مع الشمال الإفريقي، ولا سيما التجار الطرابلسيين.

(*) ولد إميل جونيتي في فرنسا عام 1866، ثم خدم في البحرية الفرنسية حتى صار رئيساً للبعثة الفرنسية التي اتجهت إلى الكونغو لتمهد الطريق لضم المناطق الواقعة بين الكونغو وبحيرة تشاد، وبدأت بعثته الأولى في عام 1898إفرنجي، ولما حققه من نتائج باهرة فقد صار ضمن الأبطال الكبار، فأرسل في بعثة ثانية عام 1899إفرنجي وهي البعثة التي نجح فيها بالقضاء على رابح فضل الله.

(1) المصدر نفسه، المجلد الأول، ص 95 ـ 96.

(2) هنري مرثيو، الأفارقة، باريس، المجلد الرابع، ص287 ـ 309.

وكانت قواته تتكون من خليط من الأجناس عرب وأفارقة، حيث وجد رابح من العرب الموجودين في المنطقة كل تعاون. والجدير بالذكر أن رابح كان يعمل لمصلحة الإسلام في المنطقة ولم يتأثر بأي من الدعوات الدينية مثل المهدية أو السنوسية بل وقف منافساً لهما في المنطقة. ويقول بيير جانتي: إن العرب ظهروا في القرن الثامن في بحيرة حوض تشاد. إن الشعب التشادي بما في ذلك سود البشرة ينسبون أنفسهم إلى أصول يمنية وحجازية، حيث استولى اليمنيون على كانيم في القرن الخامس عشر[1].

هذا وقد امتدت امبراطورية رابح من بندة شمالاً إلى رداركوتي وداورونغا إلى قيرمي وبورنو وكوتوكو.

بعد مواجهة عنيفة استطاع رابح القضاء على طلائع هذه القوات المشكلة من قوات فرنسية وقوات من منطقة البقيرمي على شاطىء النهر، واستطاعت أخيراً أن ترغمه على الانسحاب، فتحصن في مدينة كوسيري، لكن الحملة تغلبت عليه وقتلته في إبريل سنة 1990إفرنجي.

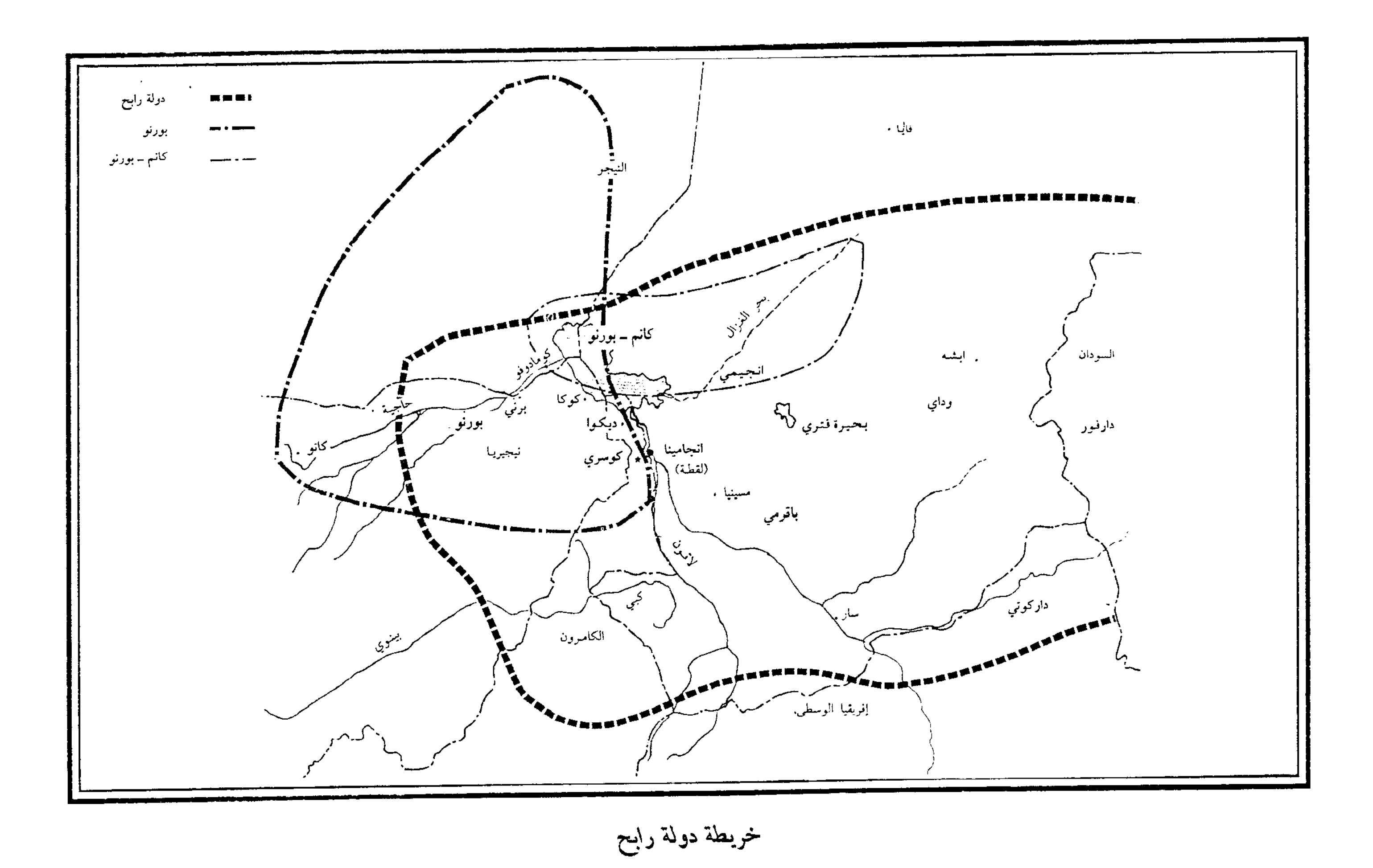
بعد ذلك قامت الإدارة الاستعمارية الفرنسية بتنظيم المناطق التشادية التي تعرض فيها جيشها إلى معارك عنيفة كما جاء في كتاب غزو تشاد: «إن مشكلة البدو الرحل تعد مشكلة عامة متعلقة بهيبتها لأن البدو لا يشعرون بأننا أسياد المنطقة. وبعد الاستيلاء على أبشي فإن الوضع لم يتغير، فالبدو هنا يخشون الواداويين والإخوان أكثر منا نحن الفرنسيين. وهذا ما صرح به أحد زعماء هذه القبائل»[2].

هذا وأمام هذا الوضع أرادت فرنسا أن تستفيد من أخطاء الماضي ومواجهة المستقبل بأكثر إيجابية حسب ما تمليه عليها مصالحها فتم عام 1910

---

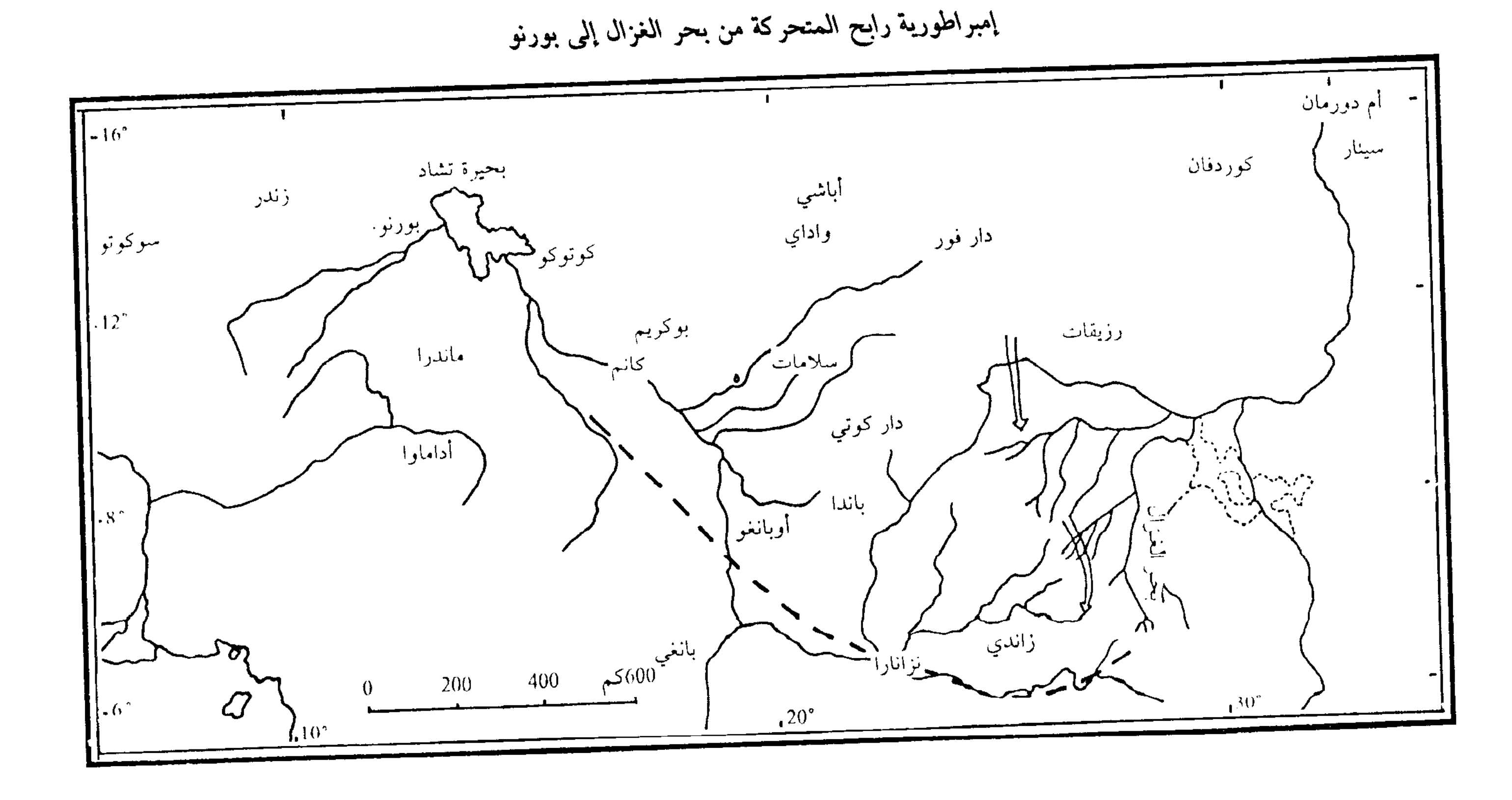
(1) غزو تشاد، المجلد الأول، ص18.

(2) إميل جانتي، غزو تشاد، ص55.



خريطة دولة رابح

إمبراطورية رابح المتحركة من بحر الغزال إلى بورنو



إصدار مرسوم بخصوص إفريقيا الفرنسية والذي يحدد هذه المنطقة التي تمتد من الخط 11° ـ 20° و20′ طولاً نحو الشرق ومن الخط 8° ـ 19° شمالاً بين نهر شاري وتشاد التي تمتد هي أيضاً حتى الحدود الليبية.

ويضيف المرسوم أن الأراضي الفرنسية التشادية الشمالية تضم ثماني مناطق عسكرية:

(المنطقة الأولى: يسكنها زنوج فتشيزت(*) مقيمون ومختلطون ببعض المهاجرين المسلمين وهي تضم منطقة شاري الوسطى.

المنطقة الثانية الباقرمي وهي تضم المسلمين وزنوج فيتشزت، غير أن المسلمين هم الأغلبية إلى جانب السلامات والكيردي(**) وهذه المنطقة تمتد بين عين أم تيمان ووادي.

المنطقة الثالثة وتتكون من كانيم وباتا ووادي وهي منطقة ذات طبيعة سودانية حيث يمر بهذه المناطق خط عرض 14.

كان الموقف السياسي كما وصفه لارجو في عام 1911 في عموم هذه المناطق يتميز بالآتي: في الشمال وفي بوركو يوجد السنوسيون الذين يعتمدون على العنف في تعاملهم مع فرنسا، ولا سيما أن هؤلاء الموجودين في هذه المنطقة يقودهم عبد الله الطوير(***) الذي يبدو أنه لا يتبع التعليمات السلمية للسنوسيين، ويعتبر أن العنف هو الوسيلة التي تجمع حوله الناس. كذلك فإن انتصار زاوية عين قالاكا على الهجوم الذي قامت به وحدات النقيب جيل في 25

(*) فتشيزت: اسم يطلق على الوثنيين بصفة عامة وخاصة على أولئك الذين يقومون بصناعة الأوثان.

(**) الكيردي: لقب يطلق على من هم ليسوا من المسلمين.

(***) عبد الله بن فضيل الملقب: عبد الله الطوير من زويه، وهو من أتباع السنوسية، واستشهد في معركة أم العدم يوم 23/ 5/ 1913.

من سبتمبر سنة 1908، كان هذا النصر بمنزلة تشجيع لسكان الإقليم الذين عادوا إلى أسلوب الغزوات ضدنا. أما في منطقة شرق أينيدي، فإن هذا الإقليم ظل خارج تحركنا العسكري لأنه يعدّ منطقة وعرة وجبلية يصعب السيطرة عليها وتسكنها قبائل من أصل عربي أمثال قبائل: أولاد سليمان، زوية، من منطقة جالو، مغاربة، إلى جانب الطوارق وبيديات والقوران، حيث استقروا في جبال واداي وظهر شخص ذو نفوذ يدعى صالح بوكريم ولكنه لم يتبع التعاليم السنوسية كما ينبغي لأنها تحدّ من سطوته، فقام بتجميع عدة عناصر حوله حيث قام بقطع طريق القوافل القادمة من برقة وذلك لحساب دودمورا سلطان واداي. أما في منطقة دارفور فإننا مهددون من قبل السلطان علي دينار حيث قام باحتلال منطقة كابكا.

في منطقة أينيدي توقف السنوسيون عن نشاطهم المعادي لنا وذلك تحاشياً لحملاتنا ضدهم. فقام القائد كولونا بحملة ضد الجبل وذلك من أجل القيام بعملية مسح شاملة للمنطقة. بينما قام النقيب كوفان بهجوم مفاجىء على منطقة فوكا وقام بطرد أولاد سليمان وزويه حيث لجأ هؤلاء إلى بوركو. قام القائد كولونا بمواصلة حملته في 11 من يونيو 1911 على مناطق كابكا، أم جريس، كافرا، حيث طرد صالح بوكريم وجماعته من الجبل وبذلك تمت السيطرة بالكامل على منطقة أينيدي.

وفي نهاية 1911 خيم الهدوء على المنطقة من الشمال إلى الشرق. وتسلم كولوما قائد الحملة الفرنسية في المنطقة رسالة من الشيخ صالح شيخ المغاربة يعلن فيها رغبته في التعايش سلمياً مع الفرنسيين، كما يشكر الفرنسيين على حسن معاملتهم للنساء اللائي وقعن في يد الحملة الفرنسية لدى احتلالهم للمنطقة. وعلى أثر هذه الرسالة قام كثير من المغاربة بانتهاز الفرصة بالعودة إلى المنطقة حيث قدموا من كانيم وأبيشي وكان معهم أيضاً القذاذفة، وكان هذا بداية لهدوء خيم على المنطقة. كانيم تقدر مساحتها بحوالي 85 ألف كم مربع،

وبلغ عدد سكانها 131039 نسمة، ويعد هذا الإقليم إلى جانب واداي هما الإقليمين اللذين يضمان أكبر خليط من الأجناس.

حيث تنقسم هذه المنطقة إلى الأقاليم التالية:

1 ـ **ماو**: ويسكنها القوران، تبو، شيتاتي، تيداس جاقادا، دوقودا، عرب أولاد سليمان مغاربة، حساونة.

2 ـ **ريق ريق**: يسكنها قوران، تبو، بودوما تشاديون.

3 ـ **نقوري**: ويسكنها حداد، تونجيري كريدا.

4 ـ **موسورو**: يسكنها القوران، كريدا، كيشيردا.

5 ـ **بول**: يسكنها كوري، بودوما تشاديون.

6 ـ **ماساكوري**: يسكنها حدادي، كوري.

ثانياً ـ إقليم باتا تم احتلاله سنة 1907 ويطلق عليه اسم منطقة فيتيري. وهي مركز أتي: مساحتها 3200كم مربع وسكانها 111903 نسمة وتنقسم إلى إقليمين:

1 ـ **أتي يسكنها**: دادجو، عرب زيبادا، جادني، ميسوري قوران.

2 ـ **مونقو**: يسكنها كيردي، قويرا، دادجو، عرب عامر.

إقليم واداي تم احتلاله سنة 1909، كانت تسمى محمية واداي. كانت مركز أبيشي ومنطقة نفوذ السلطان واداي، مساحتها 90000كم مربع، عدد سكانها 869000 نسمة.

تتكون من خمس مناطق:

1 ـ **أبيشي** يسكنها قوران كابقاس شيرفاداس، باقيرمي، عرب من ميساريز.

2 ـ أم **هاجر** ويسكنها مسميجي، قوران، عرب.

3 ـ **توما توما**: يسكنها على مساليت امبوز، قوران، عرب.

4 ـ **عرادة**: يسكنها قوران، عرب، محاميد.

5 ـ **كاليم**: يسكنها جادوز، عرب.

منطقة سيلا عاصمة قوزبيدا يسكنها جادوز، عرب بني هلال.

1 ـ تاما عاصمة نيري ويسكنها تاماوا، عرب، قوران.

2 ـ زروا كوبي وكاباقا، ويسكنها قوران، وزورا.

شاري السفلى: وهي مركز فورت لامي مساحتها 5340كم مربع وعدد سكانها 18891 نسمة.

يسكنها خليط من الأجناس منهم: كيردي، عرب أولاد موسى، سالامات، أسالاس.

بوقيرمي: دولة سلطان القوران مساحتها 90ألف كم مربع، وعدد سكانها 127801 نسمة.

تتكون من المناطق التالية:

1 ـ **سيل ماسيناي**: يسكنها عرب، وبوقيرميين.

2 ـ **بوركو**: يسكنها عرب أولاد موسى، سالامات، أساليس.

3 ـ **ميلتو**: يسكنها كيرديس، عرب فلاته.

4 ـ **سالامات**: مركز أم تيمان مساحتها 56000كم مربع وسكانها 30000 نسمة.

تنقسم إلى:

1 ـ **أم تيمان**: يسكنها عرب سالامات، كيردي، قوالا.

2 ـ **عبوديا**: يسكنها عرب رشيد. كيردي.

منطقة شاري الوسطى مركز فورت ارشمبو وتنقسم إلى:

1 ـ **فورت ارشمبو ويسكنها**: بورنان، كيردي.

2 ـ **مواسولا يسكنها**: سارا، باتا.

منطقة لوقون الوسطى مركز بهقال وتنقسم إلى:

1 ـ **بهقال**: ويسكنها سوماريا س، قابريس.

2 ـ **ماوياكيبي** مركز ليري وتنقسم إلى:

1 ـ **ليري**: موندانق، فلات.

2 ـ **فيانقا**: ويسكنها تبوريس، باناناس.

منطقة الصحراء وهي تتبع كانيم ووادي. ومن الصعب إحصاء سكان هذه المنطقة لأنهم من الرحل حيث وصل إليها مهاجرون من جادو والكفرة وكذلك زوية. وعدد السكان بوجه عام يصل إلى 20 ألفاً تقريباً[1].

هذا وقد لعبت الطرق الدينية الإسلامية في إفريقيا دوراً أساسياً في نشر الدين الإسلامي، حيث استطاع الإسلام بعد اصطدامه بالوثنية في إفريقيا أن يغرس جذوره ويشكل المسلمون نسبة 45% من مجمل السكان.

وانتشرت هذه الطرق ذات الطابع الثقافي العربي في عدة دول إفريقية. وتميزت هذه الطرق بالعودة إلى الأصول، وهذا تأتّى من العلاقات التي تربط قادة هذه الطرق بالمشرق عن طريق الحج، كذلك الدراسة في الجامع الأزهر.

وقد انتشرت القادرية في موريتانيا وحلت محلها التيجانية، كما انتشرت الدعوة المريدية في نيجيريا والتيجانية في السنغال.

---

(1) COLONEL LARGEAU.
LA SITUATION DU TERRITOIRE NILITAIRE DU TCHAD AU DEBUT DE 1912, PARIS.
PUBLICATION DU COMTTE DE LAFRIQUE FRANCAISE 1913.
BIBLIOTHEQUE MILITAIRE DE VENCENNE P4/P30.

أما في السودان الفرنسي فقد ظهرت القادرية عام 1845 وفي غينيا الفرنسية توجد القادرية إلى أن حلت محلها التيجانية عام 1860. أما ساحل العاج فيوجد فيه 170 ألف مسلم حسب إحصائيات 1904 وهم من أتباع الدعوة المريدية. وفي فولتا العليا(*) هناك مركزان أولهما للقادرية وهو مركز دوري وثانيهما زاوية سنوسية في بوبوديو لاسو.

أما في الداهومي ـ بنين حالياً ـ فيوجد 105 آلاف مسلم حسب إحصائية عام 1904 يتبعون القادرية والتيجانية.

أما في النيجر فإن الإسلام هو دين الأغلبية فيوجد عدة طرق مثل القادرية في أغادير وزندا، والتيجانية في تاهاو، وبيلما، ونيامي كما توجد السنوسية في تاروت، وبيلما، كذلك عند الرحل من الطوارق والتبو. كما يوجد المرابطون في كانو وزاريا.

إن الدعوات الإسلامية هي التي أعادت الحركة الإسلامية إلى قوتها في غرب إفريقيا الفرنسية. ويقول اللواء أندريه في كتابه: «إن الإسلام الإفريقي لم يعد مشابهاً للإسلام الصوفي القديم. بل إنه حاول التأقلم مع العقلية الإفريقية، كذلك فإن الدعوة تناسب بروحها الجماعية الإسلامية الروح الجماعية الإفريقية.

كذلك تميزت هذه الدعوات الإسلامية في غرب إفريقيا الفرنسية لأنها كلها مالكية، الأمر الذي يوحد مختلف الانتماءات العرقية رغم وجود بعض المنافسات بين بعض الدعوات.

ولكنَّ هناك دعوتين استطاعتا أن تفرضا نفسيهما في إفريقيا أكثر من غيرهما، وذلك لتبنيهما طريقاً بعيداً عن الصوفية، هما المريدية والحاملية. وسبب انتشار المريدية هو أنها قد أنشأت قرى تعتمد على نفسها وتنشر الثقافة.

(*) **فولتا العليا**: بوركينا فاسو حالياً.

إنها شبيهة بالعقيدة الماركسية التي يطبقها ماوتسي تونغ والقائلة: «الكل حسب عمله»[1].

هذا وإن بعض هذه الدعوات مثل الحاملية والقادرية في النيجر قد ساهمت في هدم المجتمع الإقطاعي.

ويضيف الجنرال أندريه عضو أكاديمية العلوم الاستعمارية في تعليقه على بعض هذه الطرق الصوفية: «يجب الحذر من هذه المراكز وجعل وظيفتها تقتصر على تعليم الدين وقصر اللغة العربية على الصلاة دون جعلها لغة للدراسة. إن استخدام الصوفية والدين الإسلامي واللغة العربية ينبغي ألاّ يتحول إلى وسيلة لإخفاء نوايا وأهداف غير دينية لدولة أجنبية. إن المرابطية الموريتانية تتحرك على محور شمال جنوب معاكسة بذلك لتيار القادرية الذي يتحرك على محور شرق غرب. إن هذا التطور في الإسلام الإفريقي وفي الدعوات الإسلامية في إفريقيا ينبغي أن يكون جديراً بالمراقبة المستمرة[2].

هكذا كانت النظرة الفرنسية التي كانت تخشى الدين الإسلامي من خلال الوجود العربي في إفريقيا والذي يهدد وجودها إذا ما سمحت له بالانتشار وتثبيت اللغة العربية كلغة لهذه الشعوب. وجاء في كتاب غزو تشاد: «إن هذه المنطقة كانت تعد معقلاً من معاقل التعصب السوداني كما كانت في السابق معقل خليفة أم درمان ثم رابح وابنه فضل الله وسلطان سوكوتو وغيرهم من أتباع محمد الاستعباديين»[3].

ب ـ دور الحركات الدينية في الكفاح المشترك ضد الحملات الفرنسية على إفريقيا: لعبت الدعوات الدينية الإسلامية دوراً كبيراً في مقارعة الاستعمار

(1) اللواء ب.ج. أندريه، الطرق الدينية الإسلامية، باريس، مكتبة فانسان العسكرية، ص103 ـ 133.

(2) المصدر نفسه، ص103 ـ 133.

(3) إميل جانتي، غزو تشاد، المجلد الثاني، ص79 ـ 80.

الفرنسي إبّان تغلغله في إفريقيا، واستطاعت هذه الحركات أن تنشر الروح الجماعية بين السكان وذلك من خلال الوجود العربي المتمثل في بعض القبائل العربية التي جاءت مع بدايات القرن الثامن حيث كانت القبائل العربية القادمة من ليبيا هي محور هذا الوجود، مثل المغاربة والمجابرة والحساونة والمحاميد والقذاذفة وأولاد رشيد وأولاد سلام والفرجان وغيرهم من الذين يطلق عليهم المؤرخون أولاد سليمان. وتكاثر عدد العرب الليبيين في المنطقة وخاصة في بوركو وكانم بعد هزيمة عبد الجليل سيف النصر سنة 1842 من قبل الأتراك.

وقد وجد الاستعمار الفرنسي بعد القضاء على ثورة السلطان رابح وأبنائه صعوبة كبيرة في التقدم نحو بقية المدن التشادية حيث كان الوجود الفرنسي سنة 1901 يقتصر على بحيرة تشاد وضفة نهر شاري. ويقول في هذا الصدد المقدم فرناندي: كلما حاولنا الابتعاد عن ضفاف البحيرة أو النهر اصطدمنا بخصمين أحدهما نفوذه مدني والآخر نفوذه روحي، هما الواداي والسنوسيون، وقد طالت مدة صراعنا معهما[1].

وكان الاستعمار الفرنسي يسعى إلى سرعة السيطرة على المناطق المتاخمة للأراضي الليبية لأسباب ثلاثة سياسية وعسكرية واقتصادية لمنع العرب والأفارقة من السيطرة على حوض البحر المتوسط. لأنه كان يرى في التبادل الاقتصادي والدراسات الإسلامية التي توفرها الزوايا سواء كانت سنوسية أو قادرية أو حاملية بين شمال إفريقيا وإفريقيا الغربية خطراً جسيماً على وجوده في الجزائر وتونس إن لم يضع حداً لذلك. وأمام هذه الصعوبات فضل الحاكم الفرنسي الجديد التعامل مع الأحداث منطقة منطقة حيث أبقى مسألة الواداي واهتم بمدينة كانم حيث اعتبرها ذات أهمية أولى.

قامت قواته يوم 9 من نوڤمبر سنة 1901 بهجوم على جموع متعددة من

---

(1) JEAN CLAUDE ZELTNER, PAGES D HISTORE DU KANEM, PAYS TCHADIENS, PARIS LHARMTTAN, 1980 P260 - 261.

الطوارق وأولاد سليمان بالغرب من بئر علالي حيث تقهقرت وتكبدت خسائر فادحة وقتل قائد الحملة. وفي 18 من يناير سنة 1902 قامت حملة فرنسية بقيادة الرائد تيسته على بئر علالي حيث تمكنت من الاستيلاء عليها رغم الدفاع الشجاع للفرسان العرب الذين كانوا يقودهم البراني(*)، وكانت لهذه الهزيمة عاقبة وخيمة على السنوسية(1).

غير أن العرب والأفارقة لم يستسلموا للهزائم لأن ارتباطهم بالأرض والدين جعلهم يرفضون الاستسلام والقبول بالأمر الواقع مهما كانت قوة الخصم.

جاء في كتاب غزو تشاد أن أولاد سليمان والتبو اتحدوا ونسوا هزيمتهم في معركة بئر علالي(2).

هذا وأثناء التعبئة الفرنسية لاستمرار احتلال تشاد قام محمد المهدي السنوسي بعد وفاة والده سنة 1866 بتوجيه نداء إلى المسلمين في كل من بوركو واينيدي واداي والطوارق في منطقتي أزقير والهوقار لمواجهة الأعداء. وفي عام 1896 تم إنشاء عدة زوايا: الأولى في بورنو والثانية في سوكوتو والثالثة في زندر بالنيجر. قام بعد ذلك محمد المهدي السنوسي بالتوجه إلى واداي وغادر الكفرة في 20 من أكتوبر 1899 حيث مر بمنطقة قورو وبنى بها زاوية وأقام بها نظراً لما تتمتع به من موقع جيد بين تيبستي وبوركو، كما أنها قريبة من إينيدي وتمر بها الطريق التي تمتد من الكفرة إلى بشرى ووادي الحمر وتكرو والذي سماه محمد المهدي بوادي سارة وحفر به بئراً عمقها 71 مترا واستمر في حفره ثمانية عشر شهراً، وقد قام كل من الملازم الفرنسي لافوشي يرافقه بورنو لابوري بزيارة هذه المنطقة بين عامي 1914 و1920. كما نجح مبعوث السنوسيين في التوفيق

(*) البراني قائد سنوسي قاتل الفرنسيين، وقام بالصلح بين قبيلة تيدا ـ وتقارا في تيبستي.

(1) المصدر نفسه، ص260 ـ 261.

(2) إميل جانني، غزو تشاد، المجلد الثاني، ص52.

بين القبائل المتخاصمة في المنطقة سنة 1900. هذا وأقاموا زاوية في منطقة علالي بعد أن تركوا منطقة قوجيا على أثر معركة خسروها مع الفرنسيين عام 1901 حيث استطاع الفرنسيون بناء قاعدة في 20 من يناير سنة 1902 في منطقة بئر علالي[1].

ويرى الفرنسيون أن سكان تشاد والنيجر يكرهونهم. هذا مما جعلهم ينضمون إلى العرب لمحاربتهم حيث لهم علاقات عرقية. ويقول في هذا الصدد إميل جانتي: التبو ينحدر أصلهم من وادي النيل، واستقروا في بوركو ثم في تيبستي في القرن الثامن قبل الميلاد. ويعتبر التبو من المسلمين المتعصبين الذين يكنون كرهاً خاصاً للمسيحيين غذته في أنفسهم الدعوة السنوسية[2].

وقد حاول الفرنسيون الاستيلاء على الطرق والأماكن المهمة حتى يستطيعوا الدفاع عما تم الاستيلاء عليه. حيث تقول صحيفة الفيغارو في عددها الصادر يوم 17 يناير 1923 : إن أراضي بيلما وكاوار تمثل منطقة حيوية لمصالحنا وذلك لموقعها حيث تتصل بها عدة واحات تمتد على مسافة 80كم وترتبط بطرق التجارة المهمة والقادمة من كل من زندر، تشاد، اير، واداي، والبحر المتوسط. فمن يمتلكها يصبح سيد الصحراء. إن بيلما وكاوار تعدّان من أهم مفاتيح إمبراطوريتنا الإفريقية[3].

وإن رسم هذه الحدود من قبل الفرنسيين جاء نتيجة إدراكهم بأن القوران يكرهونهم، حيث جاء في كتاب غزو تشاد: إن سلطان القوران محبوب من قبل شعبه لأنه يعيش بينهم ويرعى مصالحهم وهم من أصل عربي من إقليم تيبستي.

---

(1) DIFOUR JEAU LOUIS LES COUFINS SAHARIENS DU TERRITOIRE DU NIGER. PARIS BIBLIOTEQUE MILITAIRE DE VENCENNE. VOLUME NO 6 PAGE 125.

(2) غزو تشاد، المجلد الأول، ص18.

(3) صحيفة الفيغارو، عدد 17 يناير 1923.

إن علاقات القوران مع الفرنسيين سيئة للغاية كما أن تقرير إميل جانيتي عن هذا السلطان يصفه بأنه عدو فرنسا[1].

هذا وكان العرب وحلفاؤهم في المنطقة يسيطرون على الشمال التشادي حيث عجز الفرنسيون في بداية الأمر عن توجيه ضربة عسكرية قوية، ويقول ديفور جان لوي: إن شرق جبال تيبستي يقع تحت النفوذ السنوسي منذ 1870 كذلك شمال تشاد، إينيدي، بوركو وحيت عين قالاكا. هذا وقد تصدت فرنسا إبان الحرب العالمية الأولى للدعاية الإسلامية السنوسية في منطقة النيجر وذلك في الإقليم الممتد إلى الشرق من زندا وبيلما[2].

هذا واستمر الصراع في المنطقة بين السكان والفرنسيين، الأمر الذي أدى بالفرنسيين إلى جلب نجدات كبيرة، حيث اقترح فانيل قائد القوات الفرنسية في تيبستي على رؤسائه تدمير واحتي زوار وبارديا وإخلاءهما من السكان لأنه لا يمكن احتلالهما والبقاء فيهما لصعوبة الظروف المناخية والطبيعية. غير أن إخلاء بارديا سيعد انتصاراً للعرب الليبيين الذين يقومون بمحاربة الإيطاليين على الساحل ويحققون بعضاً من الانتصارات التي جعلتهم نوعاً من الأسطورة، ولهذا لا ينبغي إخلاء هذه الواحة لأن في ذلك خطراً سيهدد إفريقيا الشمالية وكل المناطق الإسلامية الإفريقية[3].

وأمام هذه الأحداث المتتالية أصبحت فرنسا تخشى على مصالحها أكثر فأكثر خاصة في الجزائر وتونس من تصاعد المقاومة ضدها، فقرر الكولونيل لارجو عام 1913 احتلال تيبستي وبوركو لتأكيد السيادة الفرنسية من ناحية ولتأمين القوات الإيطالية من هجومات التبو[4].

---

(1) غزو تشاد، المجلد الأول، ص217.

(2) جان لوي ديفور، التخوم الصحراوية لأراضي النيجر ـ مصدر سابق، ص21 ـ 22.

(3) المصدر نفسه، ص35.

(4) المصدر نفسه، ص30.

وترى الأوساط الفرنسية أن التعامل مع المنطقة يجب أن يكون تعاملاً استراتيجياً لأنه ليس هناك ثقل يمكن تدميره لشل حركة العدو المتحرك. وجاء في كتاب غزو تشاد: إن سقوط أبيشي يؤدي إلى سقوط واداي. إن القضاء على هذه الحملة التي تقدر بحوالي ألف مقاتل وقافلة من حوالي 150 ليبي التي تتوجه نحو واداي ينبغي أن يتم بأحدث ما لدينا من أسلحة لأن سقوط أبيشي في أيدينا يجعلنا نسيطر على عموم المنطقة[1].

وبعد صراع عنيف خاضه المجاهدون العرب الأفارقة مع القوات الفرنسية الزاحفة على المنطقة تمكن الجيش الفرنسي من السيطرة على مدينة أبيشي حيث يقول إميل جانتي: إن الاستيلاء على أبيشي عام 1909 كان له صدًى كبير حتى أن الحاكم البريطاني في السودان بعث إلينا بتهنئة على هذا النصر[2].

إن استمرار هذا النضال ضد الفرنسيين يرجع إلى علاقات الليبيين مع سكان تلك المناطق سواء كان ذلك من ناحية الدم أو الدين، مما جعل القوات الفرنسية غير قادرة على الثبات في مواقعها. وجاء في كتاب بولار «الطريق نحو إفريقيا»: إنه في أغسطس 1916 أخلى الفرنسيون منطقة تيبستي من قواتهم وهو أمر سيترتب عليه ازدياد غزوات التيبستيين والبدو الرحل ضد الفرنسيين وهذا سيعطل تنفيذ خطة تهدئة المنطقة[3].

أمام هذا الوضع المتوتر وغير المستقر بدأ القادة العسكريون الفرنسيون يبحثون عن طرق ووسائل أخرى للتغلب على مواجهة تلك الصعوبات حيث كتب الجنرال ميني بخصوص هذه الهجومات التي تشنها المقاومة الليبية داخل المناطق الجزائرية للتخفيف عن المقاتلين في جبال تيبستي: لقد أحضرت معي

---

(1) غزو تشاد، المجلد الثاني، ص79.

(2) غزو تشاد، المجلد الثاني، ص79.

(3) محمد مفتاح، مقاومة الليبيين للغزو الإيطالي، أطروحة دكتوراه، السوربون 1986، ص269، باريس.

من ورقلا الحاج قدور مقدم الحركة التيجانية، وهي حركة دائماً موالية لفرنسا ولها كثير من الأتباع بين سكان الصحراء، وقد حصلت منه على كتاب موجه إلى مسؤول الحركة في تاملت حيث إن هذا سيسمح لنا بإعادة تنشيط الزوايا التيجانية والتي هي في حالة تنافس مع الزوايا السنوسية[1].

هذا وقد لعب الدين الإسلامي دوراً رئيسياً في توحيد القبائل العربية والإفريقية إبان الحرب العالمية الأولى، حيث تجمعت الجهود لمقاتلة الأعداء، ويقول جان بيشون في كتابه المسألة الليبية: كانت انتفاضة المسلمين في السودان الإنكليزي قد استلهمت حركتها من الحرب في ليبيا وتم دعمها من قبل السنوسية[*] حيث امتدت هذه الانتفاضة من دارفور إلى الخرطوم، وأعلن السلطان علي دينار الحرب المقدسة ضد الإنكليز ثم اتصل بالكفرة. وكان تحت قيادته 10 آلاف مقاتل مدربين من قبل الأتراك، وقام الجنرال وين قيت الإنكليزي الذي كان تحت قيادته 18 ألف جندي بمهاجمة قوات علي دينار وأنزل بها خسائر كبيرة وأرغمه على مغادرة الفاشير، ثم قتل في معركة أخرى بمنطقة بحر الغزال، ثم اشتركت القوات الإنكليزية والفرنسية الموجودة في وسط إفريقيا معاً بطرد السنوسيين من منطقة واداي وإينيدي عام 1918[2].

وكان التعاون الاستعماري بين الفرنسيين والإنكليز قد لعب دوراً مهماً في الحفاظ على المنطقة التي تتشابك مصالحها فيها. ونتيجة لهذا التعاون بدأت القوات الفرنسية تتحرك بأمان أكثر في المنطقة غير مكترثة بحقوق الغير. وقد كتب خوسين حاكم غات الذي انضم إلى السنوسيين عام 1909 إلى الكولونيل مينيي القائد العسكري الفرنسي للواحات في 2 من يوليو 1916: لقد دخلتم

---

(1) مقاومة الليبيين للغزو الإيطالي، ص271 ـ 272.

(*) المقصود بالسنوسية في هذا الصدد هو أحمد الشريف الذي قام بدعم انتفاضة علي دينار في السودان.

(2) جان بيشون، المسألة الليبية، باريس 1945، ص126 ـ 127.

منطقة الباركات دون إذن، فينبغي عليكم الرحيل حالاً من هذه المنطقة لأنكم كما تعلمون فإن الحكومة السنوسية والحكومة الفرنسية بينهما اتفاق على احترام الحدود. أن كنتم قد أتيتم من أجل الحرب فإنني قادم إليكم بجنود لقتالكم وهزيمتكم بإذن الله؛ لأنكم معتدون على أرضنا، يجب عليكم إخلاء المنطقة بمجرد استلام هذه الرسالة، لا تكتبوا لي رداً على هذه الرسالة، إلا حينما تغادرون هذه المنطقة أما إن لم تفعلوا ذلك فليس بيننا إلا الحرب. لقد قاتلت الإيطاليين في طرابلس والإنكليز في مصر وعلى استعداد لقتالكم أنتم[1].

هذا وإن امتداد هذه الأحداث التي بدأت بغزو إفريقيا وتقسيمها، ثم تقسيم الوطن العربي بعد معاهدة سايكس بيكو عام 1916 ليس بالأمر الغريب لأن الكل حارب الامبراطورية العثمانية بمن فيهم عرب المشرق، أما عرب المغرب العربي فكان شعارهم: كل عربي مسلم، وكل مسلم عربي، هذا مما جعلهم يتحدون ويشكلون خطراً على الاستعمار. ويقول بهذا الصدد جان لوي ديفور: إنه في عام 1916 حاصرت قوات خوسين القادمة من غات واحة تيجاني واستولت عليها وقامت الوحدات العسكرية الصحراوية من الجزائريين بالهروب حيث كتب قائد منطقة الواحات الكولونيل مينيي تقريراً جاء فيه: إن القوات المهاجمة تصل إلى 8 آلاف مقاتل توجد بين غات وغدامس، مجهزة بمدافع ألمانية، وإن هذا الخطر ينتشر من إقليم طرابلس حتى تيبستي وبوركو ومناطق تشاد الصحراوية ومصر العليا. هذا الخطر يكون كبيراً إذا ما علمنا أن قبائل اير تربطها علاقات مع الليبيين وكثيراً من القبائل الرحل تربطها علاقات قرابة لقبائل جنوب طرابلس. وأن السنوسيين يريدون تكوين امبراطورية إفريقية في إفريقيا الوسطى تمتد من الكفرة حتى زندر ومن كانو حتى تمبكتو[2].

إن هذا الترابط بين سكان هذه المناطق وتلاحمهم كان له الدور الكبير في

---

(1) جان لوي ديفور، مصدر سابق ص 136.

(2) المصدر نفسه، ص 41 ـ 48.

اتحادهم ضد العدو الأجنبي ومواجهة الأخطار، وشواهد التاريخ على وحدة مصير هذه الأقاليم كثيرة؛ ففي الوقت الذي كان فيه الليبيون يخوضون معارك ضارية ضد الإيطاليين كان خليفة بن عسكر وقبائل الجنوب التونسي يقودون معارك حامية ضد الفرنسيين. وجاء في المجلة العسكرية الفرنسية: إن دور وحداتنا العسكرية في الجنوب التونسي كان كبيراً خلال الأربع سنوات الأخيرة، هذه الوحدات المكلفة بحماية مواقعنا في شمال إفريقية والممتدة على مسافة 500 كلم من البحر حتى غدامس، قد نجحت في مهمتها في مناطق صحراوية قاسية ومناخ شديد الحرارة، واستطاعت أن تهزم عدواً شرساً وديناميكياً والذي ينبغي أن نعترف له بقدراته القتالية. وقد بلغت خسائرنا أثناء هذه المعارك 748 بين قتيل ومفقود، و264 جريح، و1548 ماتوا بسبب المرض حيث بلغ إجمالي خسائرنا 2560 وذلك من مجموع 300 ضابط و15 ألف مقاتل[1].

إن الدور الكبير الذي قام به أحمد الشريف وخليفة بن عسكر قد هدد الوجود الفرنسي والإنكليزي والإيطالي في المنطقة. قامت الطائرات الفرنسية عام 1916إفرنجي بقصف نالوت، وكذلك ضربت الطائرات البرمائية الإنجليزية القادمة من مالطا 25/ 12/ 1918إفرنجي ميناء مصراتة[2]. وإن حصاراً بحرياً وبرياً وجوياً من قبل الدول الثلاث ضرب على ليبيا والقصد منه منع تغلغل الثورة خارج الحدود الليبية، وفي الوقت نفسه قام الإنكليز بالضغط على إدريس السنوسي ليجهض هذه الثورة وذلك بالتخلص من أحمد الشريف الذي كان يعتبره الإيطاليون والإنكليز والفرنسيون خصماً عنيداً ومتصلباً في مواقفه ولا يقبل التفاوض، ولهذا فضل الإنكليز والإيطاليون والفرنسيون التعامل مع إدريس.

وقد جاء في كتاب السنوسيين في برقة: «جرت المفاوضات بين

---

(1) المجلة العسكرية الفرنسية، باريس ـ رقم 136 ـ عدد أكتوبر 1932، مكتبة فانسان.

(2) أرشيف الخارجية الفرنسية، مصدر سابق، باريس، مخطوطة رقم 4، ص199.

الإيطاليين والإنكليز من جانب ومن محمد إدريس السنوسي من جانب آخر في مدينة الزويتينة في 31/7/1916. وقد وافقت فرنسا على الاتفاق الذي تم بخصوص إدريس السنوسي في مارس سنة 1917. حيث إن أي اتفاق لا يجب أن يتم مع إدريس دون علم مسبق لكل الشركاء. وبموجب هذا الاتفاق اعترف بإدريس كرئيس للسنوسية[1].

وكان الدور المهم لليبيا قد أثر في استراتيجية المنطقة عبر مراحل التاريخ، حيث جاء في كتاب لكلير: إن هناك ثلاثة خطوط جوية تشكل محاور يمكن من خلالها غزو تشاد وهي:

أ - طرابلس - تومو - تشاد.

ب- طرابلس - غدامس - غات - تشاد.

جـ- إيطاليا - طرابلس - بنغازي - الكفرة - أثيوبيا.

إن المنطقة التي تقع داخل هذه المحاور يمكن لها أن تستوعب 500 مطار، هذا فيما يخص إمكانات الغزو والحركة الإيطالية[2].

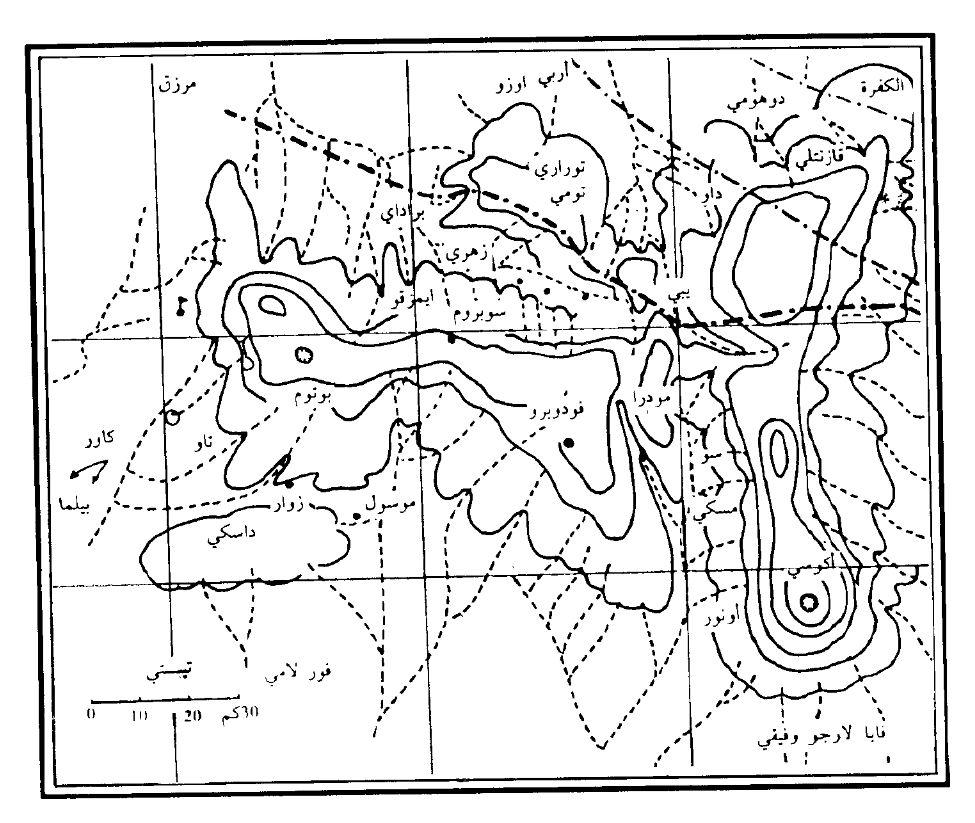
وهكذا يرى الجنرال لكلير أحد قادة الحرب العالمية الثانية أهمية ليبيا والخطر الذي يمكن أن تسببه لمستعمراتها الإفريقية عندما شخص هذه المنطقة التي من خلالها يمكن غزو تشاد. ويستمر الجنرال لكلير في وصف تيبستي وتقدير أهميتها حيث يقول: إننا أمام عدو يفوقنا عدداً وعدة ولا نستطيع حياله عمل شيء ما لم تكن لنا السيطرة على تيبستي.

إنها منطقة غريبة وفريدة في تكوينها، قاعدة ضخمة تشرف وتسيطر على مجمل المنطقة الممتدة تحت أقدامها إلى آخر ما يستطيع رؤيته البصر. إنها

---

(1) جان ديسم لكلير، من تشاد إلى الرين، فزان، طرابلس، تونس، باريس، - باريس - هاشيت 1949، ص43.

(2) إيفانس بيتشر: السنوسية في برقة، أكسفورد، 1949، ص120.

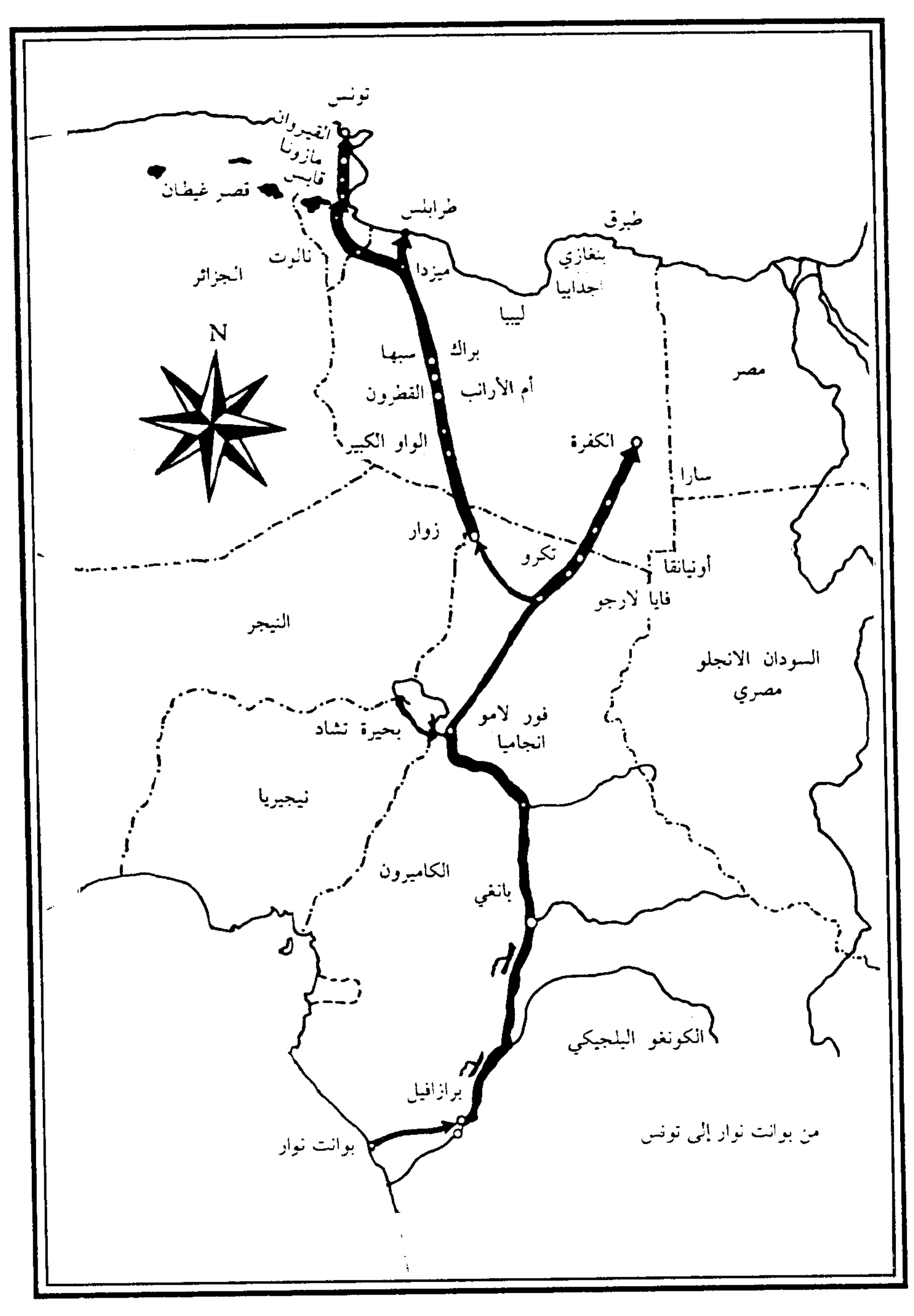


منطقة تيبستي

تحمي الأراضي الإيطالية (ليبيا) وتوفر لها الحماية. إن هذه المنطقة عالم بذاته يبلغ ارتفاع الكتل الحجرية فيها حوالي 70 متراً. إن التبو يطلقون عليها اسم الصخرة وهي حقيقة صخرة الصحراء التي من قمتها نستطيع السيطرة على كل الأراضي التي تمتد حولها[1].

هذا وعندما أراد لكلير الاستفادة من سكان المنطقة لمحاربة الإيطاليين والألمان لم يجد منهم أي تجاوب عندما قال لبعض وجهاء واحة الجوف: إننا لم نأت هنا لمحاربتكم ولكن لطرد الإيطاليين، فإذا ما لزمتم الحياد، فإننا لن

(1) كتاب ديسم لكلير، ص44 ـ 45.



من «بوانت نوار» بالكونغو إلى تونس

نتعرض لكم ولأموالكم فردّ عليه الوجهاء بأنها حرب بين البيض وليس لنا فيها دخل[1](*).

وكان قادة القوات العربية والإفريقية في المنطقة يحاولون اختيار المناطق التي يمكن لهم الدفاع عنها، وفي نفس الوقت تكون أمينة ومحصنة ضد الأعداء.

ومن هنا نرى أن العسكرية العربية والإفريقية المتجانسة في تلك الفترة كانت تفتخر وتعتمد على الأصالة في محاربة الاستعمار. إن هذه الصراعات التي خاضها العرب والأفارقة ضد الاستعمار الفرنسي ليست فقط لحماية الدين والتصدي للحروب الصليبية ولحماية التجارة التي كانت مصدر الرزق الوحيد بل العامل الرئيسي الذي ربط هذه الشعوب ببعضها عبر التاريخ، كان دافعه المحافظة على شخصيتها وتميزها.

الدكتور محمد العلاقي

---

(1) كتاب جان ديسم لكلير، ص43 ـ 44.

(*) يقصد الجنرال لكلير العدو هنا هم الألمان والإيطاليين.

الإسـلام والقبائل
في
مسـتعمرة النيـجـر

بـول مـارتي

مقتطفات من مجلة دراسات إسلامية عام 1931

الفصل الأول

دائرة كاوار ـ تيبستي

1 ـ نظرة عامة:

تحت هذا الاسم الذي هو بلا شك مؤقت سندرس دائرة **كوار** (واحة **بيلما، اناي، ياط ـ جادو**) والمنطقة الجبلية التي كانت تشكل في الماضي والتي ستشكل مستقبلاً دائرة تيبستي.

جوهر السكان هنا من أصل **توبو** التي تنطق أحياناً **تبو**. إن كلمة **تبو** تعني رجل (بو) الحجارة (تو). هذا ويتألف السكان من الأهالي المستقرين في الواحات وحول البحيرات المالحة ومن بدو الصحارى وقطاع الطرق الذين يعيشون في المناطق الوعرة والذين يبتعدون عن نقاط الماء المعروفة والذين، في النهاية، لجأوا إلى **تيبستي** تهرباً من نفوذنا.

إلى جانب **التبو** ينبغي ذكر بعض التجمعات السكانية من قوم **كانوري** ويوجد أهمها في بيلما وفي فاشي حيث يمثل غالبية السكان.

ينتمي السكان إلى عشيرتين كبيرتين: قوم **التبو** وقوم **القانوري** غير أن الانصهار الكامل لم يحدث بين هاتين العشيرتين لأن عادات الزواج المختلط بينهما لم يمض عليها سوى قرابة ثلاثين عاماً، لذلك بقيت الخاصيات العرقية

بينهما واضحة جلية: **فالقانوري**، رجل الواحات والبساتين، إنسان لطيف وديع يتولى الزراعة والعمل في مناجم الملح، أما **التبو** فهو رجل الجبال يعمل في القوافل أو يشارك في عمليات النهب، إنه إنسان ماكر ذو حيوية يحب الكسب يعيش متنقلاً أكثر مما يعرف الاستقرار ولا يمثل كوخه سوى مرفأ يرجع إليه بين رحلتين.

تتكون دائرة **بيلما** من عدة واحات موزعة وسط الرمال، ثلاث من هذه الواحات آهلة بالسكان وهي **فاشي** (قرية) **وكامار** (عشر قرى) **وجادو** (قرية).

تتكون هذه القرى من أبنية قوامها جذوع النخيل والأحجار. إن هذه المنازل عادة ما تكون في أعالي الجبال وذلك تجنباً للفيضانات الجارفة ومنعاً لوصول المغيرين إليها، فضلاً عن عرقي **القانوري والتبو** هناك عنصر الأسرى الذين يبلغ عددهم ألفي شخص من أصول مختلفة وإن كان أغلبهم ينحدر من قوم **البورنو**[1]. إن هؤلاء الأسرى الذين أصبحوا طلقاء منذ الاحتلال الفرنسي لا يزالون مع ذلك يعملون كخدم لدى العائلات ويساهمون نوعاً ما في الاختلاط بين الأجناس.

معظم سكان قريتي **فاشي وبيلما** من قوم **القانوري** لذلك توجد علاقات القرابة المتينة بين هاتين القريتين.

تضم قرية **دوركو** نفس العدد تقريباً من عائلات **التبو** وعائلات **الكانوري** أما القرى الأخرى في دائرة **كاوار** وفي إقليم **تيبستي** فأغلب سكانها من **التبو**.

قدم قوم **الكانوري** من **اليمن** أثناء القرن الثامن الميلادي وتوجهوا إلى إقليم **كانم** عبر **فزان وكاوار**، وفي أثناء مسيرتهم الطويلة توقف عدد كبير منهم

---

(1) قوم البورنو من أصل مدينة بورنو التي اشتهرت بنشر الإسلام عن طريق التجارة في الشمال وبورنو مدينة في نيجيريا.

بسبب المرض والتعب في الواحات التي يمرون بها مما ترتب عنه تأسيس قرى ومدن **جادو ودوركو وبيلما**.

كان قوم **الكانوري** مستقرين منذ زمن طويل في البلاد عندما جاءت مجموعة صغيرة من **التبو** إلى إقليم **كاوار** بحثاً عن بعض الإبل المفقودة وعند رجوعها قصّت على قومها عجائب إقليم **كاوار** فطلبت عدة عائلات من **التبو** حق الإقامة في واحات كاوار، وحصلت على موافقة أهل هذا الإقليم وبدأت الهجرة تتزايد رويداً رويداً، ولما كان **التبو** كثيري التناسل بالمقارنة مع **الكانوري** فإن هذا العرق الجديد اتخذ في **كاوار** أهمية متزايدة، وعاش الفريقان جنباً إلى جنب طيلة سنوات عديدة.

أما غزو إقليم **كاوار** من قبل **الطوارق** وهو غزو متأخر كثيراً عن ظهور **التبو** فلم يترك أي أثر: ذلك أن **الطوارق** لم يستقروا أبداً في **كاوار** وكانوا مجرد سادة متشددين في هذا الإقليم.

على العموم لقد لاقى قوم **الكانوري** دائماً التعسف: نهب **التبو** ووصاية **الطوارق** وعمليات السلب والنهب التي يقوم بها بعض الغزاة العرب، ويبدو أن عشيرة **الكانوري** في **كاوار** كانت بصدد الانقراض عندما وقع الاحتلال الفرنسي. لا يملك **التبو** معلومات محددة ودقيقة عن أصولهم، ويمكن تقسيمهم إلى مجموعتين كبيرتين: المجموعة الشمالية أو تيدا والمجموعة الجنوبية أو **دازا**.

ويقول **التبو**: **إن** مجموعة ـ تيدا ـ هم من **الساميين الحميريين** الذين وفدوا عن طريق **الكفرة** وقد اختلطوا بعناصر من الصيادين الذين كانوا يقيمون في البلاد، هذا الجنس من التبو استقر في إقليمي **كانم وبورنو** حيث اختلط على الخصوص بالعناصر المستقرة في هذه المناطق. وكما ذكرنا سابقاً فإن قوم **التبو** في تيبستي يشبهون البدو أكثر مما يشبهون أهل الحضر، فهم قوم يبحثون دوماً عن المراعي ولذلك فهم مضطرون إلى التنقل المستمر ولا يقيمون في الواحات

إلا في مواسم تلقيح النخيل وجني التمور. هذا وينخفض عدد سكان تيبستي باستمرار بسبب نزوح السكان إلى أقاليم **بورنو وكانم** أو انيدي الموفورة. وفي واحات دائرة **بيلما** فإن اللغة المستعملة من قبل جميع السكان هي لغة **الكانوري** أو **البيري – بيري**[1]، وعلى العكس من ذلك فإن قوم **القانوري** لا يتكلمون لغة **التبو**. كذلك يتكلم كثير من السكان لغة **الهاوسا** لكن بأسلوب هجين لا يراعي قواعد الإعراب، أما لغة **التبو** فلا يتحدثها سوى قوم التبو أو قوم الكانوري المتحالفين مع التبو. أما اللغة **العربية** فلا يعرفها سوى قوم **ديولا** الذين وفدوا من إقليم **ماو**[2].

ينتشر الإسلام هنا في جميع المناطق باستثناء بعض تجمعات **التبو** البدوية الصغيرة التي يعتبرها السكان من الوثنيين على الرغم من أن هذه التجمعات لا تستحق هذا الاسم إلا من منظور عدم اكتراثها الديني. لقد جاء دين النبي (الإسلام) من كل الجهات ومن كل الطرق الصحراوية الكبيرة، واستناداً إلى الروايات في هذه البلاد فإن الدعاة الأول جاؤوا من الشمال لكن ليس عن طريق **فزان** كما يمكن أن يعتقد ذلك وإنما بطرق ملتوية عن طريق **غدامس وغات وأغاداس وسوكوتو**. وعندما اعتنق ملوك **بورنو** الإسلام، انتشر هذا الدين في الشمال تحت غطاء التجارة. ومن **أغاداس** توجه الدعاة المسلمون إلى **فاشي** ثم انتشروا في **بيلما وديركو وإناي** وفي إقليم **كاوار**، وبعد ذلك قدم العرب **الطرابلسيون** مباشرة من مرزق. وقد ترك بعض منهم نسلاً طيلة قرون ولا شك أنهم ساهموا في تقدم الإسلام خاصة وأن كثيراً منهم من الشرفاء. وتقول الروايات: إن أحد **المورابو**[3] (المرابطين) من الكبار جداً جاء عام 1860 إلى إقليم **كاوار** قادماً من **مرزق** وأقام طويلاً في **شميدور وفاشي** وتوصل إلى جعل

---

(1) كلمة بيربيري ربما تكون فرعونية ويرجع أهلها إلى الأصل العربي القديم.

(2) من أقاليم تشاد.

(3) المورابو: رجال الدين الصالحون الذين يعتقد فيهم.

البلاد إسلامية. ثم انتقل بعد ذلك إلى **أغاداس** ومنها توجه إلى **سوكوتو**.

ومن ناحية الشرق، نفذت الطريقة **السنوسية** إلى إقليم **كاوار** عن طريق تيبستي وتمكنت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر من امتلاك هذه البلاد روحياً. وفي هذا الصدد تتحدث الروايات عن حملة كبيرة قام بها السنوسيون عام 1895. وقد جسدت هذه الحملة سيطرتهم النهائية على المنطقة.

وتجدر الإشارة إلى أن أغلب الواحات ليس بها مساجد حيث كانت تكتفي غالباً بمصلّى من الرمال يوجد وسط الزرائب. والمعروف أن **التبو** البدو مثلهم مثل جميع الصحراويين يستغنون عن المساجد(*).

هذا ويدير رجال الدين في **الكاوار** وهم قلة حوالي عشر مدارس ابتدائية. وإذا كانت غالبية **التبو** قد عارضت احتلالنا **لتيبستي** فذلك ليس عن قناعة بالانتماء إلى **السنوسية** وإنما فقط خوفاً من الحد من حريتهم وحقهم في السطو على الطرقات.

إن سكان إقليم **كاوار** سواء كانوا من **القانوري** أو من **التبو** متحمسون لاحتلالنا: فالضرائب قليلة وقرب قواتنا ـ يوفّر لهم أمناً لم يعهدوه من قبل ثم إن ولاءهم لا يتعرض للانتهاك إلا عندما يقتضي الأمر مساعدتنا على إلقاء القبض على بعض الناهبين الذين يخافون من انتقامهم.

أما قوم **تبو التيبستي** فإنهم يكرهوننا وهم مبتهجون بإخلاء مراكزنا في **زوار وبرداي** حيث إن ذلك رد لهم استقلاليتهم.

2 ـ المراكز:

1 ـ **بيلما**: هي اسم الواحة الأساسية من بين العشر واحات التي تشكل إقليم كاوار. إنها تمثل أكبر حاضرة لهذه الدائرة ومركزاً لغابات النخيل ونقطة

(*) تلك هي عادة العرب حيث كان الرسول ﷺ يصلي بالمسلمين في الساحات.

مرور إجبارية لطريق القوافل الكبيرة الرابطة بين **فزان وتشاد** وحتى بين **غات وتشاد** لأن هذه الطريق التي أصبحت اليوم غير مستخدمة كثيراً ترتبط بالأولى في **جادو وسغدين**.

لقد جعلنا من **بيلما** عاصمة لدائرة **كاوار** الإدارية والعسكرية وأقمنا فيها أيضاً وحدة من الشرطة الداخلية. وتتمثل مهمة هذه الوحدة في مناوبة القوة التي أحدثت في هذه المناطق حتى تستطيع التحرك باتجاه الجنوب أساساً وفي المناطق المتاخمة لواحات **كاوار وأغرام** بحيث تكون تحركات هذه الوحدة متلازمة مع تحركات هذه القوة.

وكما فعلنا في **أغاداس** لمصلحة **الطوارق** وفي **ورقلة** لمصلحة قوم **الشعانبا** ينبغي أن تهدف سياستنا في **كاوار** إلى خلق مصالح عقارية (بيوت وغابات نخيل) لمصلحة البدو المجاورين للواحات.

يبلغ عدد سكان الواحة (**بيلما**) قرابة أربعة آلاف نسمة كلهم من المسلمين المتشبثين بتقاليدهم الذين ليس لهم شيء من التعصب.

عقب أحداث **وداي وبوركو** ثم تيبستي أظهر **مرابطو** واحات **دركي وشيماندور** بعض علامات عدم الخضوع لكن المصالح التجارية عند هؤلاء القوم المستقرين تأتي قبل أي اعتبار آخر.

هناك مسجد في كل قرية من قرى الواحة. أما المدارس القرآنية فيتراوح عددها بين 6 و8 حسب المواسم. كذلك يتراوح عدد التلاميذ بين 8 في قرية تيغيمان و30 في قريتي **بيلما ودركي**.

أما أهم رجال الدين فهم معلم **حاج لاوال في ديركو**: إنه لا يتمتع إلا بنفوذ محلي. **معلم محمد موسى في بيلما**: إنه **سنوسي** ونفوذه محدود جداً. **سيدي موسى في بيلما**: **سنوسي** متعصّب ورجل متعلم له نفوذ كبير. **معلم حاج غانا أريغاغسار**: ثقافته ونفوذه متوسطان.

2 ـ **فاشي**: تعتبر واحة كبيرة وهامّة تقع على بعد 145كلم جنوب غرب

بيلما. لقد منحها هذا الاسم **الطوارق** المجاورون واحتفظنا نحن به. لكن السكان أنفسهم وأهالي **كاوار** والمناطق الأخرى يسمونها **أغرام**. وتمتد هذه الواحة 13 أو 14 كلم طولاً من الشمال إلى الجنوب و3 أو 4 كلم عرضاً من الشرق إلى الغرب.

وهي متاخمة للصحراء من كل الجهات خاصة من جهة الغرب حيث تفصلها صحراء **التنيري** القاحلة عن إقليم ايبز.

تضم هذه الواحات عدة مجموعات من النخيل والمراعي التي تفصل بينها هضاب الرمال: نخيل **أغرام**، نخيل جبل **فوسو ودنيسا** في الوسط ومراعي **تيغاريت** في الشمال ومراعي **كابستو** في الجنوب.

ـ هناك قرية واحدة في **أغرام** التي شيدت في الجانب الغربي. كذلك هناك بعض الأكواخ التي بنيت فيها **فوسو ودنيسا** وهي مجرد ملاذ مؤقت لعمال مناجم الملح وجامعي التمور. الماء متوفر بكثرة حيث يكفي حفر أقل من مترين للعثور عليه في كل مكان.

أما أصول السكان فهي غامضة: يبدو أن الأهالي ينحدرون من أصل قوم **الصوو** وهم قوم انقرضوا حالياً وحل محلهم قوم **الكانوري**. ويعتبر هؤلاء **الكانوري** أشقاء لقوم **بيلما**. إنهم مزارعون مستقرون يتعرضون دائماً لنهب البدو المجاورين من **طوارق الآيير** غرباً ومن **تبو الكاوار** و**تيبستي** شرقاً ويبلغ عدد الأهالي حوالي 750 نسمة.

مصادر الإنتاج في الواحة من صنفين: النخيل ومناجم الملح. أما النخيل الذي يكثر عدده فيوفر تموراً ذات نوعية متوسطة تعتبر الغذاء الأساسي للسكان الذين يمتلكون أيضاً بساتين صغيرة حيث يزرعون بعض الخضار المحلية وقليلاً من الشعير والقمح والبرسيم الذي يتغذون به كسلطة. لكن المصدر الكبير للواحة يتمثل في مناجم الملح حيث تتموّن منه سنوياً قبائل الأزلاي في الآيير.

تتم إدارة الواحة من قبل مجموعة أوليغارشية(*) تضم أربع عائلات **قانورية** شريفة هي:

اغراما ـ جيبو

اغراما ـ كوادار

اغراما ـ دادو

اغراما ـ لوغول

تختار هذه العائلات زعيماً من بين أعضائها، ويمثل هذا الزعيم نوعاً من رئيس مجلس أكثر من رجل ذي سلطة كبيرة. إن سلطته تشمل جميع السكان لكنها إذا كانت كاملة بالنسبة **للكانوري** فهي شبه غير موجودة بالنسبة **للتبو**.

مبدئياً تخضع **فاشي** لسلطة رئيس دائرة **كاوار**. وإذا كانت لا تنتمي جغرافياً إلى هذه المجموعة من الواحات فهي تخضع لها سياسياً وتعتبر ضمن كونفدرالية **التبو والكانوري**، لكن بصفتها حارساً متقدماً نحو الغرب لإقليم **كاوار** فهي معرضة لضربات **طوارق** إقليم **الآيير** الذين يجبون منها ضريبة سنوية، كما يظهرون من حين إلى آخر سعياً للنهب والسطو. ولتجنب ذلك بادر أهل **فاشي** إلى بناء قلعة كبيرة أو **بيرني** في وسط القرية يبلغ ارتفاعها ما بين 8 و10 أمتار. إن هذه القلعة تمثل ملاذاً لهم وداراً للتخزين ومستودعاً مركزياً وقاعدة للدفاع. لذلك فهي دائماً مغلقة ومحروسة بعناية.

يقول الرائد **موري**، إن القضاء في الواحة يمارسه قاض هو أيضاً رئيس رجال الدين في القرية، فهو يصدر أحكاماً قطعية في مختلف الجرائم والجنح التي تعرض عليه، وتتمثل الغرامات في حيوانات الضأن والماعز وفي أشجار النخيل والتمور والقماش التي يقدمها الجاني حسب خطورة الجريمة المرتكبة لكن لا وجود للحكم بالإعدام.

(*) **أوليغارشية**: هي مجموعة ضيقة لها الحكم المطلق أي أنها سلطوية.

عندما يرفض أحد المتهمين الخضوع للحكم الذي صدر ضده فإنه يطرد من الواحة ولا يقبل فيها إلا إذا دفع الغرامة أو حصل على عفو. وتجدر الإشارة إلى أن قوم **الكانوري** يخضعون بمفردهم لأحكام القاضي أما **الطوارق** و**التبو** فهم غير ملزمين بذلك بل إنهم لا يخضعون لأي قضاء.

يعتبر قوم **الكانوري** من المسلمين المقيمين نسبياً للشعائر. وهناك مسجد شيّد في الباب الشرقي للقرية، حيث تقام الصلوات بإمامة رئيس (رجل الدين) هذا وعندما يفتقد الإمام يختار السكان إماماً جديداً من بين مورابو القرية الذين لهم على ما يبدو نفوذ كبير على الأهالي.

حتى عام 1910 كانت الواحة تستقبل كل عام زيارة مرابطين أجانب يكونون عادة من الحجاج الذين يمرون بها أثناء ذهابهم أو عودتهم من الحج حيث يلتحقون بقوافل **الازبين** للتنقل بين **اغرام** و**بيلما** بمزيد من السهولة والأمان، غير أن هذه الزيارات صارت قليلة منذ عدة سنوات. كذلك لا يبدو أن الواحة قد زارها منذ عدة سنوات مبعوثون **سنوسيون** الذين باتوا لا يفدون على إقليم كاوار منذ سنوات عديدة.

لم يقم أي رجل دين في **أغرام** بزيارة **مكة**، وفي الماضي قام واحد منهم فقط بزيارة **طرابلس**.

التعليم له حظوة في **أغرام** حيث هناك ليس أقل من أربع مدارس يرتادها كل الأطفال الذكور في القرية بدون استثناء سواء كانوا أحراراً أو أسرى لتعلم الحروف العربية والقراءة والكتابة. أما الكتاب الوحيد المستعمل فهو القرآن في ترجمة للغة **الكانوري**.

إن رجال الدين الذين يشرفون على هذه المدارس كلهم من قوم **القانوري** المقيمين في الواحة. وهناك مرابط واحد من بينهم يعرف اللغة العربية التي تعلمها خلال إقامته في **طرابلس**، ومثلما هي الحال في جميع المدارس

الإسلامية فإن المعلم يتمتع بسلطة كبيرة على تلاميذه الذين تقدم له أسرهم علاوة سنوية تتراوح بين 5 و10 أكيال من التمور أو ما يعادلها من الذرة حسب عمر ودرجة تعليم الطفل.

3 ـ **جادو**: يقول الرائد **موري** الذي زارها في سبتمبر 1907: «إنها حالياً قرية بائسة بالمقارنة مع ما كانت عليه منذ زمن ليس ببعيد. كل بيوتها المبنية من الطين والحجارة والموزعة حول جبل حجري أصبحت اليوم خراباً وقبل احتلالنا **لبيلما** قدم طوارق إقليم **الآيير في** نهاية 1905 وبداية 1906 ونهبوا **جادو**. فأخذوا كل ما يمكن أخذه وأحرقوا الواحة».

بعد هذا النهب لجأ كثير من السكان إلى **تاجيري** وصاروا لا يرجعون إلا من حين إلى آخر لجني محاصيل ما تبقى من أشجار النخيل القليلة التي لم يأت عليها الحريق. ومنذ ذلك الوقت رجعت عدة عائلات إلى القرية لكن أهل جادو أصبحوا بدورهم ناهبين. فقد صاروا يستضيفون مدبري الغزوات وينضمون إلى عملياتهم كمحاربين أو أدلاء. ففي عام 1920 شارك قوم **التبو** المنشقون في **جادو** والذين لجأوا إلى **زيلا** في غزوة اصطدمت يوم 11 من سبتمبر في **بوركوت** مع عناصرنا من **الطوارق**. وقد تم حملهم على الفرار بعد أن خسروا ثلاثة رجال وثلاث بنادق، وأثناء انسحابها التقت هذه الغزوة في تيغيرات مع مجموعة من أنصارنا في **بيلما** وأسفر الاشتباك عن مقتل أحد رجالها وأسر آخر والاستيلاء على بعض البنادق والجمال.

تضم منطقة **جادو** التي تمتد على طول 50 كلم من الجنوب إلى الشمال واحات **سارة وشيرفا وجادو وجابا وعين اورهيدا**. ويحدها شرقاً جدار صخري يبلغ ارتفاعه أحياناً 200 مترٍ. كما يحدها غرباً إقليم **تينيري** الذي يشبه في تضاريسه إقليم **كاوار**.

هذه المنطقة التي عبرتها قواتنا لأول مرة في 1906 وذلك أثناء صد غزوة لقوم **اجار** في **اورهيدا** لم نزرها إلا نادراً أثناء الدوريات الاستطلاعية فكلما

اقتربنا منها يهرب التبو إلى الجبال ليختفوا في ملاجئهم. فنشدد على مطاردنهم لكننا نجد كل مرة الساحة خالية ولا نتمكن إلا من الاستيلاء على بعض الرهائن والجمال والمواشي دون أن نسجل نتائج حاسمة.

ولأجل حمل التبو على الاستسلام وفي محاولة للقضاء عليهم بواسطة التجويع يتم كل عام منذ 1910 حرق محاصيل التمور على عين المكان. إنه أسلوب همجي نوعاً ما لكنه فرض علينا عقب الوضع الذي أصبح فيه مستحيلاً علينا ضمان الأمن الدائم في الواحة.

وفي ذات الوقت تواصل دورياتنا في الجبال التفتيش عن المخابىء لكن بدون نجاح يذكر، ومع ذلك فإن هذه السياسة لا تنعدم من بعض النتائج لأن التبو أدركوا أننا نستطيع منعهم من العيش بطمأنينة في مخابئهم؛ لذلك قرر الجائعون منهم والذين لم يصابوا بالتعصب الالتفاف حول الزعيم أسويا، وجاؤوا يوم 14 من مارس 1912 إلى بيلما ليعلنوا استسلامهم. هذا الاستسلام الذي قبل بدون شروط وضمانات على صدق النية تبعته عمليات خضوع عديدة. ففي نهاية يونيو استقر في قرية جادو القديمة قرابة مائتي شخص والتفوا حول الزعيم اسويا. وفي الوقت الذي كانت قوات الدائرة المتحركة تستعد لاحتلال مراكز المراقبة في الواحات لم نحصل بعد على خضوع التبو المشهورين بالنهب والسلب. فأمثال بيديمي وعثمان وديبيدي الذين يملكون عدة جمال وقطعان من الماشية سرقوا معظمها من إقليم ازبين يخافون من أن نحملهم على إرجاع سرقاتهم لكنهم يفضلون الابتعاد عنا؛ لذلك لجأ كثير منهم برفقة أسرهم إلى ضواحي مرزق. وقد بلغنا أن كلوفاي الذي كان في بداية يونيو يتاجر في فاشي بالأسلحة الممنوعة قد رجع إلى منطقة جادو، فصدرت الأوامر إلى قائد المنطقة بضرورة إلقاء القبض عليه.

وقد انطلقت وحدة خاصة من بيلما يوم 28 من يونيو 1912 لتحتل واحة سيغيدين، والتقت بالوحدة الخاصة بمطاردة كلوفاي، وتوجهت المجموعة إلى

جادو. وقد التحق بها الزعيم **اسوبا** لكنه لم يعط معلومات محددة عن **كلوفاي** لكنه لم يخبر هذا الأخير بقدومنا، فلما فاجأته إحدى دورياتنا لم يتردد **كلوفاي** في إطلاق النار على عناصرنا ربحاً للوقت. وعلى الرغم من إصابته بجراح استطاع الفرار بمساعدة أتباعه تاركاً وراءه بعض أسرته وممتلكاته.

هذه الحادثة وما تبعها في الأيام التالية أثبتت أن الزعيم **أسوبا** لا يتمتع بسلطة كافية تجعله يحمل أبناء بلده المنشقين الذين يواصلون الإقامة في **جادو** ليغيروا على **ازبين** على الانضمام إلينا. وبذلك أصبحنا على بينة من أمره ولا ينبغي لنا الاعتماد عليه للقبض على هؤلاء المغيرين.

ومن جهة أخرى أوضحت الأحداث الأخيرة مدى المصاعب التي يواجهها رجالنا من أصحاب المهاري، فإذا كانوا قد نجحوا نوعاً ما في مضايقة تجمعات **التبو** في جادو والحد من عمليات غزوهم **لأزبين**، وإذا كانوا قد نجحوا بعد ذلك في ضرب **التبو** في إقليم **كاوار** فإن رجالنا لم يتوصلوا إلى هذه النتيجة إلا بعد بذل جهود مضنية بات مؤكداً أنهم لا يستطيعون القيام بها مجدداً.

كانت مهمة الوحدة التي أقيمت في **ايتشوما** تتمثل زيادة عن مراقبتها للمراعي في مراقبة **جادو** وصد المغيرين الذين يجتازون بسرعة خط الواحات بعد غزوهم **لأزبين**. لذلك صارت هذه الوحدة مستنفرة باستمرار نظراً لمهارة الخصم في التحرك ضمن مجموعات صغيرة يصعب التغلب عليها.

وفي مثل هذه الظروف بات من الضروري متابعة فكرة دعم إعداد وحدة دائرة **بيلما** حتى يمكن السيطرة بفاعلية على واحات **جادو**. وقد اتضح أن الاحتلال الدائم كفيل وحده من خلال إنشاء مركز عسكري في المنطقة بضمان نتيجة مفيدة حقاً.

ومن المعلومات الدقيقة التي تتوفر لدينا يتضح أن **جادو** كانت ولا تزال حلقة إجبارية للغارات والغزوات المنطلقة من **تيبستي** أو **فزان** والمستهدفة لأزبين.

من ذلك مثلاً أن الغارات التي استهدفت أزبين في سبتمبر 1911 وخلال عام 1912 مرّت كلها بجادو.

هذه المنطقة التي ليست أغنى من إقليم كاوار من ناحية المراعي لا يمكن لوحدة أصحاب المهاري أن تحتلها سوى شهرين من العام خلال موسم جني التمور. فضلاً عن ذلك يتم ابتداء من شهر اكتوبر تجميع القوات المتحركة للدائرة في بيلما لضمان حماية قوم الأزلاي من الطوارق. لهذا السبب تعتبر جادو النقطة الوحيدة في الدائرة التي يمكن للمغيرين أن يمروا بها في بعض الفترات من العام دون التعرض للمضايقة وهو أمر لا يجهله هؤلاء الناهبون.

لجادو علاقات مستمرة مع فزان؛ لذلك فإن إقامة مركز بها من شأنه خلق علاقات دائمة مع إقليم كاوار. ونستطيع بذلك أن نأمل في الحصول على معلومات في بيلما حول تجمعات العرب الذين يستغلون الفوضى القائمة في فزان والذين يأتون لضرب رعايانا. علماً بأن آخر المتمردين في منطقة جادو قد لجأوا إلى وادي مرزق، ويستبعد أن يكونوا قد تخلوا عن كل أمل في الرجوع إلى بلادهم الأصلية حيث تركوا أسرهم ومصالحهم، لذلك من واجبنا تجاه أولئك الذين فضلوا الخضوع لنا وتحملوا أوزار احتلالنا أن نحميهم ضد العمليات الانتقامية التي يتعرضون لها من قبل بني وطنهم المنشقين.

من ناحية ثراء الأرض تشبه منطقة جادو إقليم كاوار. كذلك يكثر شجر النخيل فيها وتعتبر تمورها ذات نوعية جيدة. وعند إقامة المركز المطلوب التحق مائة ساكن من جادو كانوا تحت الإقامة الجبرية في إقليم كاوار ببلادهم الأصلية حيث انضموا إلى السكان الموجودين هناك. ونتوقع أن يساهم الاحتلال العسكري لجادو في عودة عدد من السكان الذين لا يشعرون بالأمن إلى هذه الواحة، وبعد أن يتجمعوا يستطيع هؤلاء السكان تحت قيادتنا إعادة الرفاهية إلى المنطقة وإقامة علاقات تجارية مع فزان كما في الماضي. كذلك يتم زرع بساتين القمح والشعير والبرسيم بنفس الطريقة كما في إقليم كاوار.

فضلاً عن ذلك فقد تمت إعادة بناء قرية جادو القديمة التي تشهد آثارها الحالية على حضارة متقدمة.

وللتلخيص يستجيب مشروع الاحتلال للضرورات التالية:

1 ـ **من الناحية العسكرية**: احتلال نقطة مرور إجبارية للمغيرين من تيبستي وفزان على أزبين.

2 ـ **من الناحية السياسية**: في أن نكون على اتصال مباشر مع مقاطعة طرابلس حتى ندافع عن رعايانا في جادو ضد عمليات انتقام بني وطنهم من المتمردين.

3 ـ **من الناحية الاقتصادية**: إعادة فتح طريق مرزق ـ جادو ـ بيلما في وجه التجارة واستقطاب جانب من سكان زايلا الحاليين ومنح منطقة جادو رفاهيتها القديمة.

أنشىء المركز العسكري في جادو يوم 5 من اكتوبر 1913 بعد إلغاء مركز مرادي، ويضم هذا المركز ملازماً واثنين من صغار الضباط الأوروبيين و50 من الرماة منهم 25 يركبون الخيول ويمثلون مجموعة تتولى حراسة الواحات الشمالية. لكن هذه المجموعة لم تسجل النتائج المتوقعة منها فألغيت في نهاية 1914.

لقد قامت هذه التجربة على المعاينة الجيدة لاستخدام الخيول من قبل المغيرين خاصة أولاد سليمان لكن النتائج التي استخلصت من هذه التجربة كانت سيئة.

تضم غزوات العرب التي تنطلق من القطرون ومرزق رجالاً يركبون الجمال، هذا ويحمل الغزاة وراء الجمال عدداً قليلاً من الخيول التي يولونها عناية خاصة، أما غذاؤهم الأساسي فيتمثل في حليب النوق.

عند الوصول إلى المنطقة المستهدفة يقوم قائد الغزاة بالبحث عن مكان

مناسب يخفي فيه كل عصابته، يكون غير بعيد عن تجمعات الخيام والقرى التي سيتم نهبها. عند ذلك يقوم مبعوثوه باستكشاف المناطق المجاورة ثم يحدد بعد ذلك موعد الهجوم الذي يتم ليلاً أو في الفجر بواسطة رجال يركبون الجمال.

إذا نجح الهجوم يتم البدء في النهب مباشرة وتحمل الجمال الأمتعة المسلوبة ويهرب الغازي بغنائمه. أما إذا فشل الهجوم فإن الفرسان يصدون المتتبعين ويضحون بأنفسهم إذا اقتضى الأمر حتى يعطوا للجمال مجالاً من الوقت للهرب، ثم يلتحق الفرسان بعد ذلك بالغزاة ويلتحقون بنقطة انطلاق الهجوم. وعلى العموم يتعرض الغزاة للخسائر لكنهم يعوضونها عادة بالأمتعة التي ينهبونها.

يمكن أن نستخلص من كل هذا أنه لو كان لنا فرسان في مركز معيّن فبالإمكان انطلاقاً من هذا المركز الانقضاض بسرعة على كل عصابة تظهر في المناطق المجاورة وتدميرها إذا أمكن والعودة بعد ذلك للإقامة بهذا المركز لكن ينبغي أن يكون هذا المركز الذي يتم اختياره مناسباً بحيث تستطيع الخيول العيش بسهولة فتجد الكلأ والماء. فضلاً عن ذلك ينبغي أن تصل إلى هذا المركز كل المعلومات حول الغزاة، وأن يستطيع الفرسان بعد الحصول على هذه المعلومات الخروج للقاء الغزاة ودحرهم وتشتيتهم وملاحقتهم إذا اقتضى الأمر ذلك.

هذا الوضع يقتضي أن توفر البلاد على امتداد ثمانين كيلومترا من كل الجهات بعض مصادر الماء والمراعي للخيول لأن هذه الأخيرة إذا حملت من نقطة الانطلاق الماء والفارس والمؤونة فإنها تصبح عاجزة عند الوصول إلى مكان الهجوم عن التحرك وبذل الجهود.

وخلاصة الأمر أن فكرة استخدام الفرسان فكرة مغرية في حد ذاتها ويمكن تصورها لكن قبل خلق هذه الأداة ينبغي التأكيد من جدواها.

إن تجربة دامت عاماً كاملاً قد أثبتت أن لا جدوى منها لذلك، ألغيت فرقة الفرسان، غير أن العملية لم تسفر عن خسارة حيث بيعت كل الخيول بأثمان جيدة في بيلما.

كذلك أدت صعوبات التموين والحد من أعداد المجندين إلى إلغاء مركز جادو في 25 من اكتوبر 1915.

لقد أطلنا الحديث عن مسألة إنشاء مركز جادو لأن الأسباب والدوافع العديدة والجديدة الداعية إلى ذلك كانت تثير على الدوام الرغبة على عين المكان في إعادة إنشائه.

أما اليوم فقد توصلنا إلى صيغة مجدية من استخدام جادو، ذلك أن الفرقة الثانية لأصحاب المهاري التي تتمون في الكاوار والتي تجد سهولة في التموّن من مطمور مركز جادو للتقدم نحو الشمال تتولى مهمة ضمان الأمن في الطرق الصحراوية من تيبستي إلى طرابلس مروراً بأزبين وتشاد حيث تلتقي هذه الطرق في واحات كاوار وأغرام وجادو.

إن حدود تحركات هذه الفرقة تصل شمالاً إلى الحدود الجزائرية والطرابلسية وشرقاً إلى خط آبار ماداما ومابروس وأوتوما وأغزي وفوشين وجنوباً إلى دبالة وأونيسوي وغرباً إلى خط آبار ماشي وأشيغور وفوسانات.

إن المراقبة الفعالة لمثل هذه المنطقة المترامية الأطراف حول واحات تستخدم عموماً كنقاط ارتكاز أو أهداف للغزاة المنطلقين من مشارف طرابلس أو من بعض جبال تيبستي لا يمكن أن تقوم بها هذه الفرقة إلا إذا توفرت لها مساعدة من قوة بوليسية ثانوية.

اليوم بات الأمن مستتباً، فالناس رجعوا للعمل في غابات نخيلهم لقد رجعت الأمور إلى نصابها، ومن مصلحتنا أن نسارع في إعادة بناء جادو التي تنطلق منها الطريق نحو غات. ففي جادو وحدها يمكن العثور على أدلاء لطريق

القوافل، ثم إن واحتها جميلة جداً. وفي النهاية تمثل جادو أهم المراحل وأهم نقاط الراحة على طريق زيندار. أغاداس ـ غات وغدامس ـ قابس أو طرابلس.

4 ـ **ياط**: تسمى بالعربية «الباهية» (الجميلة). إنها واحة جميلة تمتد مسافة 20 كيلومترا من الشرق إلى الغرب و12 كيلومترا من الشمال إلى الجنوب وتضم أربعة مراع متميزة تفصل بينها بعض المرتفعات الحجرية أو الحواجز الرملية. وتوجد ياط في الوسط ودام تومني باتجاه الشمال الشرقي وكورو باتجاه الجنوب الشرقي وأتيبيي في الاتجاه الغربي. وتحتل شعفة جبلية جميلة ترى من بعيد وسط الواحة حيث طريق مرزق قريب منها، كما تمر هذه الشعفة الجبلية وسط مرعى ياط ثم توازي بعد ذلك مرعى دام تومني.

تكثر الأعشاب وتتنوّع في مرعى ياط حيث توجد أيضاً أعشاب ذات أشواك تكثر على الخصوص في مراعي دام تومني وكورو وايتيبيي. كذلك تكثر الآبار في ياط ويمكن الوصول إلى الماء الوفير بعد حفر أقل من مترين. وتشهد أشجار النخيل على أن هذه الواحة كانت آهلة سابقاً وأنه بالإمكان تعميرها من جديد، بل قد يتعجب المرء من عدم العثور على سكان بها، وبما أن عمليات المرور بها متواترة فكثيراً ما تمر بها القوافل القادمة من طرابلس أو تيبستي أو جادو.

تمثل ياط من وجهة نظرنا مرعى خصباً لوحدة من المهاري ونقطة مراقبة جيدة لرصد الاتصالات بين كاوار وتيبستي.

5 ـ **زوار**: يوجد مركز تموين الفرقة الأولى في زوار، ويتمثل دور هذه الفرقة في ضمان الأمن المحلي وفي منع ومضايقة تنظيم الغزوات على امتداد الجانب الغربي لإقليم تيبستي من دومار إلى الحدود الطرابلسية شمالاً.

ويتحدد مجال تحركها نحو الغرب بخط آبار مادامكا ومابازو ودافيرو وفوشيم. وينبغي أن تركز اهتمامها في كل منطقة على الآبار والمراعي التي

تمكن في الغرب والشمال البدو الناهبين والمتمردين في هذه المنطقة من ضمان العيش لحيواناتهم ومن إقامة علاقات عادية مع اللاجئين التيبستيين في زوية (بالمنطقة الطرابلسية) الذين ثبتت مراراً مشاركتهم في عمليات النهب والسلب.

وينبغي لفرقة الحراسة في هذه المنطقة أن تكون فعالة خاصة في موسم التمور، ففي هذا الموسم يمكن للدورية المقدمة على محاذاة جبال تيبستي أن تزور السفح الشمالي الشرقي لهذه السلسلة الجبلية وتقترب من مشارف بارداي حيث ينبغي أن يبرز وجودها كل عام للعيان والسكان.

3 ـ الشخصيات:

1 ـ **ماي شافامي**: هو أشهر زعيم في تيبستي. إنه قاطع طريق من التبو يبلغ من العمر 65 عاماً، هذا الرجل الذي جال في الصحراء طيلة 50 سنة قد واجه تغلغلنا بكل أشكال المقاومة الممكنة، لكنه يملك من الحكمة والحرية ما يجعله يدرك أن الزمان قد تغيّر وأنه ينبغي اللجوء إلينا. هذا الرجل يسمى بلغة البلاد «داردي شاي».

حتى عام 1900 لم تكن لنا علاقات تذكر مع زعيم تيبستي لكن قواتنا ظهرت في ذلك العام حول تشاد والتقينا به كل مرة خلال الاشتباكات المسلحة وضمن المكائد السنوسية وغير السنوسية.

لقد تمالك تبو تيبستي أنفسهم بعد تأثرهم بالهزيمة التي لقوها في عين قلق على أيدي قواتنا في تشاد. وتوجه «ماي شافامي» إلى مرزق للحصول على إرسال بعض الجنود الأتراك إلى برداي. لكن باشا فزان سحب هذه الحامية التركية الصغيرة عقب هجوم على قافلة وقع في أغسطس 1907.

قد يطول الحديث عن تفاصيل صراعاتنا مع «ماي سافامي» حيث يتطلب ذلك سرد تاريخ تشاد بأكمله.

ابتداء من عام 1918، موعد انتهاء الحرب الأوروبية، بدأ التيبستيون الذين

أرهقتهم المقاومة، الذين فقدوا كل أمل في النهب والسلب والذين أصبحوا يواجهون شخصياً غزوات الطوارق، بدءوا في التفاوض من أجل التسليم والخضوع. ومن المفيد في هذا الصدد قراءة هذه الرسالة الغريبة من «ماي شافاي» التي افتتحت هذه المفاوضات:

«كل الأعيان وكل رجال تيبستي، ماي شافامي وزطّيمي كتبوا هذه الورقة. لقد اجتمع الجميع وتحدثوا ويريدون الآن طاعة ماي شافامي. إن ماي شافامي يريد أن يعيش على علاقات طيبة مع رجال استانبول. كل رجال تيبستي يقولون: إنهم يريدون الاستماع إلى كلام ماي شافامي. إن سلطان استانبول يقول: إنه لا يريدون رجالاً قراصنة. كذلك يقول ماي شافامي: إنه لا يريد رجالاً قراصنة كل التبو يقولون: «بعد الآن لن نسرق أبداً ولن نفعل الحرب وسنطيع قائدنا». بعد الآن سيهدأ كل التبو. إنهم يريدون تبادل الأسرى مع الطوارق وينبغي للنقيب (الفرنسي) أن يقول للطوارق: «التبو لن يحاربوكم فلا تحاربوهم». عندما يهاجم الغزاة الطريق لا تستطيع القوافل السير فيها إنهم يريدون أن تبقى الطريق سالمة. لقد أصبح التبو الآن يطيعون ماي شافامي وزطيني وينبغي للنقيب (الفرنسي) أن يبلغ بذلك الطوارق. إن ماي شافامي وزطيني وكل أعيان تيبستي يطالبون بالسلام مع النقيب ومع الطوارق، ويريدون تبادل الاتصالات والمبعوثين بين النقيب وماي شافامي وليحل السلام بينهما. وكذلك بين ماي شافامي والطوارق. وليكن بإمكان الطوارق الورود على تيبستي ومرزق للاتجار. إنهم يأتون للاتجار ولا ينبغي لهم أن يسرقوا كما كانوا يفعلون من قبل. عندما يأتي رجال ماي شافامي إلى كوار سيكونون حاملين لتراخيص منه؛ لذلك فإن رجال التبو الذين لا يحملون مثل هذه الأوراق ليسوا برجال لماي شافامي وينبغي قتلهم. أما الرجال الذين يأتون حاملين لتراخيص فينبغي تركهم يتاجرون في كاوار. إن الرجال الذين يقودهم ماي شافامي يأتون دائماً حاملين ترخيصاً ولا يبقون أكثر من ثلاثة أيام وعندما يكتب النقيب رسالته ينبغي

أن يسلمها للرجلين اللذين يحملانها إلى ماي شافامي. كذلك ينبغي للنقيب أن يبعث برسالة إلى الطوارق. إن ماي شافامي يحيي النقيب. لقد كتبت هذه الرسالة يوم الثلاثاء 20 من الشهر القمري الموافق لـ10 من شهر عيد الأضحى. وقد كتبها المورابو (المرابط) خليل بن مامادو كاواكاوا».

لقد قبل هذا التسليم مبدئياً، لكن فرض على ماي شافامي ضرورة وقف تحالفه مع أهالي الكفرة وتسليم الأسرى وقطعان الماشية المسروقة وتقديم 200 قطعة سلاح حربي.

لقد بقي نشاط ماي شافامي الرامي إلى حمل رجاله على التسليم، بقي طويلاً بدون أثر يذكر غير أن الوقت كان يعمل في مصلحته. فقد حضر بعض مبعوثيه إلى بيلما يوم 15 من مارس 1915 برفقة 6 أسرى و4 جمال تم غزوها في السابق. لكنهم اعترفوا أن قائدهم لا يستطيع ضمان تسليم الأسلحة المطلوبة.

وفي تلك الأثناء غادر القائد المتمرد مختار كودوغو شقيق كاوسان قرية أبو علي أثر خلاف مع تبو المنطقة، فتوجه إلى مارو (الواقعة على بعد 100 كيلومتر جنوب شرق زوار) إلى معسكر القائد غيطي الذي لم يكتف فقط باستقباله وتموينه ولكن بحمايته من أحد الغزاة المناهضين لنا. فقد واجه هذا الأخير الذي كان مكلفاً باختطاف كودوغو، في قرية مارو، عداء أهل غيطي الذين أطلقوا عليه الرصاص. وعلى أثر هذه الحادثة وجّه غيطي الذي أصبح لا يريد الدخول معنا في مواجهة مفتوحة رسالة اعتذار إلى قائد بيلما العسكري معتبراً أن تبادل إطلاق الرصاص كان مصدره سوء التفاهم.

بعد أن فارقهم غودوكو متوجهاً إلى مارو التحق تبو جادو المنشقون بمشارف واحتهم. وتمركزوا بجبال جادو على أهبة الانطلاق نحو عمليات نهب جديدة عند انتهاء جني صابة التمور.

لذلك بدا الوضع في تيبستي في بداية أبريل 1920 على النحو التالي:

سكان لا يرغبون في إظهار خضوعهم الفعلي لنا وإنما يسعون فقط إلى مهادنتنا. زعيمان خصمان هما ماي شافامي وغيطي ولاؤهما مشبوه ونفوذهما متقلب بسبب مظاهر التسليم التي يبديانها لنا، ومتمرد لدود معه قرابة الثلاثين من الأنصار يعيش في مأمن إلى جانب زعيمين من التبو دون أن يقدر أحدهما على حمله على الانصراف، وأخيراً تحركان سياسيان متعارضان يصدر أحدهما من بيلما والآخر من بوركو ويعتمدان على التوالي على ماي شافامي وغيطي.

لذلك كانت السياسة التي ينبغي اتباعها في تيبستي متمثلة في ضرب الحصار الشامل على المنطقة في انتظار أن تمكننا وسائلنا من القيام دورياً بسلسلة من العمليات ضد سكانها وضد هجمات الغزاة حيث إن آثار التخويف والترهيب لعملياتنا أنجع وأسرع من المفاوضات.

لكن ماي شافامي كان بصدد القيام بخطوة إلى الأمام وحل الوضع في مصلحته. وفي نهاية مايو 1920 بلغنا أن التبو اغتالوا مختار غودوغو في 11 من ذات الشهر. وقد وقع الاعتداء عليه بعد 60 كيلومترا جنوب شرق زوار بينما كان في طريقه إلى الكفرة. وقد قتل معه ستة من رفاقه بينما فرّ أربعة آخرون مات أحدهم بسبب جراحه.

وقد بعث ماي شافامي برسالة إلى بيلما ليبلغنا أنه مدبّر عملية الاغتيال وهو ما تأكدنا منه بطرقنا الخاصة، ولا شك أن تدخله هذا كان بدافع الرغبة في الحصول لدينا على مكسب يسبق به خصمه غيطي وكذلك بدافع الخوف من نزول كودوغو في واحتي غوبو وزومري أثناء موسم جني التمور.

كذلك سلم لنا ماي شافامي 7 بنادق غير صالحة للاستعمال ووعدنا بأن يسلمنا مستقبلاً الأسلحة التي انتزعت من جماعة كودوغو. وقد استغل هذه الفرصة ليجدد لنا ضماناته بالولاء طالباً منا التريث بخصوص مصير المحادثات القائمة بفضل وساطته.

كذلك ألحّ في طلب دعم نفوذه في أبو حيث يفتقر هذا النفوذ إلى دعائم القوة. لكن اتضح في ذات الوقت أنه على الرغم من تعهده بالوفاء لقضيتنا فإن ماي شافامي يحتفظ بنوايا وصداقات مشبوهة، من ذلك مثلاً أن الرحلة التي قام بها في تلك الفترة إلى أبو لم تكن تهدف كما كان يزعم إلى تسليم الأسلحة المطلوبة من قبلنا وإنما فقط إلى حمل قوم أبواس إلى إعادة الأمتعة التي سرقت من رجلين سنوسيين كانا مرتبطين بكودوغو؛ فقد كان هذان الرجلان بصدد التوجه إلى الكفرة برفقة عناصر أخرى من قوم كوان وزعيم الطوارق فونا وكودوغو الذين كانوا في انتظاره بقرية زومري (الواقعة على بعد 50 كلم جنوب شرق برداي) عندما وقع قتله.

لقد استمر الزعيم التيبستي غيطي، شأنه شأن ماي شافامي، في اتباع سياسة اللعبة المزدوجة: من ذلك مثلاً أنه في الوقت الذي كان فيه يقدم أدلاء إلى كودوغو حتى يستطيع التوجه إلى الكفرة كان أيضاً يسعى إلى إبلاغ قائد حامية فايا بتنقله حتى يستطيع هذا الأخير إرسال فرقة من رجال المهاري ضد الزعيم الطوارقي.

لقد اتضح أن لا أحد من الزعيمين اللذين يتقاسمان النفوذ في تيبستي كان يريد احترام الشرطين الأساسيين للأمان: تسليم الأسلحة ومقاطعة السنوسيين.

لكن ماي شافامي أعلن في النهاية عن خضوعه في أكتوبر 1920. لقد بدأ باختبار الميدان بواسطة أحد أبنائه وبعد الاطمئنان إلى ذلك حضر يوم 19 من أكتوبر إلى بيلما رفقة 17 من أتباعه، حيث التقى بالعقيد رويف مفوّض الحكومة الذي كان بالذات موجوداً في بيلما في جولة تفتيشية.

لقد تم قبول خضوع ماي شافامي الذي تعهد بتنفيذ كل شروط الأمان التي فرضت عليه والتي كانت معروفة، وقد طالب بدعم نفوذه على بعض المجموعات التي انسلخت عنه وذلك بواسطة إظهار القوة العسكرية، كما طالب بإبعاد غيطي وأبنائه عن تيبستي. طبعاً ليس بالإمكان الاستجابة إلى مطلبه حول

هذه النقطة. وكل ما يمكن فعله هو العمل على اقتسامه للقيادة مع غيطي والاستجابة لطموحاتهما وفقاً للحدود المعقولة.

لقد علمنا بواسطة ماي شافامي أن الزعيم الطوارقي فونا تم تعيينه من قبل محمد العابد، كجامع لريع الزكاة في واحة الكفرة، وفي ذات الوقت كتب محمد العابد إلى ماي شافامي يبلغه أنه يجرّده من حمايته ويمنع رجاله من الوفود إلى الكفرة إذا لم يسلم القطعان والأسلحة والأمتعة التابعة لكودوغو.

2 ـ **غيطي**: لا مجال للقيام بإفراد نبذة خاصة عن حياة هذا الزعيم التيبستي، خصم ماي شافامي ورجل السلطات الفرنسية في تشاد الذي يلقى نفس الأهمية التي يلقاها رجلها درداي شاي في النيجر. لقد قيل كل شيء عنه في الصفحات السابقة، ويتمثل الحل كما طرحناه في إيجاد وفاق مسبق بين الإقليمين وفي توزيع النفوذ.

3 ـ **زطّيمي**: الزعيم التبوي المتقدم في السن في «بو». لقد كان الشخصية السياسية والحربية الرئيسية في التيبستي الغربي وكان نفوذه يضاهي ويوازي أحياناً نفوذ ماي شافامي في التيبستي الشرقي. إننا نعثر على آثاره في معظم الغزوات وكان حليف أبو سلام في قضايا 1908 ـ 1909.

في 25 من يناير 1909 حضر إلى بيلما رجلان من التبو أرسلهما ماي شافامي، يحملان رسالة منه وقعها عدة أعيان على رأسهم زطيمي. وكان مضمون هذه الرسالة يدور حول طلب السلم وحسن الجوار. لقد كان من الهيّن تصور الدوافع التي حدت بأولئك وهؤلاء إلى القيام بمبادرة المصالحة هذه:

أ ـ هيبة أسلحتنا (هزيمة ابن زطّيمي في اشيغور وعبد السلام في الكاوار).

ب ـ التشديد من منعهم دخول إقليم الكاوار حيث لهم أقارب وحيث يتزودون بالتمور والعسل.

ج - الخوف من أن نحتل واحتي صغدين وجادو حيث يتزودون عادة بما يحتاجون إليه.

د - رغبتهم في مبادلة الأسرى الطوارقيين الذين في أيديهم بزوجاتهم وأطفالهم الأسرى في أزبين (زطيمي وحده له امرأتان وأربعة أطفال أسرى في أزبين).

هـ- الخوف من أن نرسل طابوراً من الجيش إلى تيبستي.

و - الرعب من غزوات الطوارق المضادة التي يخشون أن ندفع بها ضدهم (خوفهم في هذا المضمار يكاد ينطق به كل سطر من سطور رسالة ماي شافامي).

لقد أبرم السلام على أساس تسليم كل الأسرى الطوارقيين وإعادة البنادق ذات الطلقات السريعة وغرامة متمثلة في عدد من الجمال.

ابتداء من ذلك اليوم أصبحت العلاقات مع زطيمي ودية نسبياً، فأثناء احتلال تيبستي كان من الأوائل الذين استسلموا يوم 8 من أكتوبر 1913 لقائد الفرقة العسكرية في زوار ويدعى لوفلار، فاستعاد بذلك سيطرته على منطقة جبال انيري وتعهد بأن يضمن فيها الأمن والاستقرار من خلال حمل آخر المتمردين على الاستسلام، فضلاً عن ذلك وعد باستخدام كل نفوذه تجاه المجموعات المتمردة في أبو وأوزو وبيبي حيث أرسل إليها مبعوثين من أجل إعلان استسلامها. وبكلمة واحدة، إنه يضع هيبته وتجربته ومعرفته للبلاد في خدمة السلطة الفرنسية من أجل قمع كل حركات السطو التي تصل إلى مسامعه، وقد تركت له عشر بنادق لتمكينه من ضمان سلامة ذويه وحتى يستطيع عند الضرورة التحرك برفقة معاونينا.

هذا الخضوع للزعيم زطّيمي الذي كان يعتبر أكبر شخصية في منطقة تيبستي الغربية والذي تجاوزت سمعته كمحارب متمرس حتى نفوذ الدردي شافامي سرعان ما كانت له آثار طيبة في مجمل جبال تيبستي.

لكن للأسف، إن سلطة زعماء التبو حتى عندما تكون مهمة تفقد عندما تتحالف مع القضية الفرنسية جانباً من الثقل الذي اكتسبته في خدمة القرصنة والنهب، لدى المحترفين للسلب والنهب الذي لجأوا إلى أقاصي مرتفعات تيبستي خاصة باتجاه الجنوب الطرابلسي الذي لم يحمه الاحتلال الإيطالي من الفوضى.

ومهما يكن من أمر فإن خضوع زطّيمي قد ضمن الهدوء في المنطقة الغربية وكان يمثل ضماناً أمنياً ثميناً بخصوص الاتصالات بين برداي وزوار وكاوار.

بعد ذلك لم يخيّب زطّيمي كلية الآمال التي وضعناها فيه. وإذا كان سلوكه معيباً أحياناً فإننا نعترف له بالجميل لأنه لم ينضم إلى أعدائنا الألداء خلال سنوات 1915 ـ 1917 الشديدة.

4 ـ **عبد الله انديمي**: هو أهم تاجر في الكاوار إنه من أصل طرابلسي وقد ولد في حدود 1880. إنه رجل ذكي وغني يتمتع أكثر من غيره من الزعامات المحلية بالسلطة والهيبة.

كان في الماضي يرسل كل عام قوافل كبيرة نحو مرزق وطرابلس أو نحو تيبستي وغات. لذلك كانت له علاقات مع التبو البدو الذين كان يدفع لهم ضريبة والذين كان يستخدمهم كأدلاء ومرافقين، كذلك كان يلقى احتراماً كبيراً. ومع حلول السلام فإن هذه العلاقات التجارية ستعود إلى ما كانت عليه.

4 ـ مسألة تيبستي:

تقرر القيام بالاستيلاء على تيبستي لوضع حد لعمليات السلب والنهب التي يقوم بها التبو. وقد تقررت هذه الحملة ووضعت موضع التنفيذ خلال عام 1913 ونفذت في 1914 بواسطة طابور بقيادة الضابط لوفلار، وكان هذا الطابور يضم سريتين من أصحاب المهاري وسرية من الراجلين وسرية من المدفعية.

هذا الطابور الذي انطلق من بيلما يوم 20 من نوفمبر 1913 وصل يوم 10 من ديسمبر إلى زوار حيث وصلته أوامر عليا بالتوقف فاستغل قائده هذه الفرصة لبناء قوة ارتكاز ثابتة في زوار ولتفقد المناطق المجاورة.

لكن سلسلة من المناوشات تسببت للأسف الشديد في فقداننا للعريف الأوروبي غوايو وستة من الرماة في بئر لوبرقي. وكان من نتيجة هذه الدوريات الاستطلاعية إخضاع القسم الأكبر من التبو في هذه المنطقة، وكان كثير منهم خاصة أهم التجار ويدعى باركان كوبو قد طلب منا الحضور منذ زمن بعيد، لكن زعيمهم الرئيس زطيني هرب إلى بارداي ليتحالف مع تبو المنطقة الشرقية الذين يقودهم ماي شافامي زعيم تيبستي، وبعد أن حصل على ترخيص بمواصلة عملياته في المنطقة الشرقية، تحرك الطابور في بداية يونيو واتبع طريق الشمال (منطقة أبو) التي اتضح طبقاً للمعلومات المتوفرة أنها أسهل منالاً وأقل تعرضاً للمفاجآت من الطريق عبر سلسلة جبال طارسو، وبذلك تم الوصول إلى بارداي يوم 23 من يونيو بعد التعرض لكثير من المصاعب التي تمكن التغلب عليها بفضل إصرار وتصميم رماتنا.

لقد تم الاستيلاء على بارداي التي أخضع القسم الأكبر من سكانها المستقرين للنشاط السياسي لعناصرنا، تم بدون حوادث حيث لاذ المنشقون أمثال ماي شافامي وأنصاره إلى مناطق زوماري وأوزو، وبفضل ملاحقتهم من قبل فرقنا الاستطلاعية وإلحاق الهزيمة بهم في عدة معارك صغيرة أهمها معركة أوزو حيث تركوا 20 قتيلاً تفككت شوكة هؤلاء المنشقين شيئاً فشيئاً وجاء قسم منهم يعرض علينا خضوعه، ولم يبق سوى ماي شافامي وبعض من أنصاره الذين واصلوا المقاومة في الأرياف خاصة في منطقتي أبو وأوزو.

في نهاية 1914 بات الاحتلال شبه كامل حيث خضع لنا أغلب التبو واستسلم زطيمي في المنطقة الغربية من تيبستي، وباتت الطريق الرابطة بين زوار وبارداي مروراً بطارسو مأمونة.

بعد أن وضعت عليهم مراقبة شديدة من قبل حاميتي زوار وبارداي ومن قبل فرقة أصحاب المهاري في زوار صار دور التبو منحصراً في مجموعات معزولة من الناهبين الذين يصعب ضربهم نظراً لمعرفتهم الجيّدة لظروف الحياة في الصحراء وقدرتهم على تحملها.

وفي الخلاصة، لقد نفذت هذه الحملة بمهارة وبمنهجية وقدرة فائقة فلم تتخذ طابع التحرك العسكري الكبير، غير أن عقبات التموين وصعوبة المناخ الصحراوي وشظف العيش أجهدت قواتنا التي شاركت في هذه الحملة.

تقرر في 7 من ديسمبر 1915 ضم منطقة تيبستي بعد احتلالها إلى الكاوار فأصبحت تسمى دائرة كاوار ـ تيبستي.

لكن أصعب الأمور ما زالت تنتظرنا حيث لا يكفي الاستيلاء على بلاد ما وإنما ينبغي الاحتفاظ بها. وبالذات فإن بعد بارداي وصعوبات وكلفة التموين الكبيرة حملت القوم في زندار كما في داكار على الاعتراف بضرورة إخلاء هذه البلاد (دائرة كاوار تيبستي). وينبغي ألاّ ننسى أن الحرب الأوروبية كانت في أوجها وأن التقهقر الكامل للإيطاليين على امتداد الجبهة الطرابلسية قد زاد من خطورة وضعنا في الصحراء.

رفض وزير المستعمرات مختلف عروض داكار بإخلاء بارداي وبالاحتفاظ بمركز في زوار على السفح الجنوبي الغربي من جبال تيبستي. وقد قدم هذا الوزير أسباب رفضه في رسالة وجهها إلى الخارجية نورد هنا أهم ما جاء فيها: «لو كنا في ظروف أخرى لما ترددت لحظة في إعطاء الأوامر الضرورية في هذا الاتجاه. إنه لم يتم احتلال بارداي في 1913 إلا لهدف حماية منشآتنا في إقليم بوركو. ومنذ ذلك الوقت، اتضح أن الاتصال بين المنطقتين لم يكن ضرورياً لضمان الأمن في بوركو. ومن جهة أخرى لما كان الاحتفاظ بحامية في بارداي مكلفاً للغاية فإن إجراءات الإخلاء كانت ستتخذ بدون مضرة لو لم يحدث النزاع الأوروبي بانعكاساته في المنطقة الطرابلسية. ففي هذه

الساعة يمكن أن نتساءل عما إذا كانت أخبار إخلاء بارداي من قواتنا سوف لا يساهم بشكل كبير في ترسيخ هيبة شيخ السنوسيين، علماً بأن تدخله إلى جانب القبائل الطرابلسية في مقاومتها لإيطاليا قد توجّه بهالة أسطورية. ثم إن التقهقر المفاجىء للقوات الإيطالية نحو الساحل والإخلاء المتتابع والسريع للمراكز الصحراوية، وكذلك النقاط البحرية الهامة غرب طرابلس قد بعثا الحماس الشديد في قلوب الليبيين الثائرين على الاحتلال الأجنبي. إن الإعلان عن حركة تقهقر نقوم بها في الصحراء سيظهر بمظهر انتصار جديد للسنوسيين وسيبرز كأنه بداية لنشاط يوجه هذه المرة ضد الفرنسيين أي ضد الجنوب التونسي. إن الوضع في التخوم الصحراوية لمحميتنا لا يسمح لنا على الإطلاق بأن نتسامح إزاء خلق بؤرة جديدة متأججة وخطيرة؛ لذلك مهما كانت صعوبات احتفاظنا ببارادي ومهما كلّفنا مستقبلاً تموين حاميتنا فلا أعتقد أن يكون لنا مكسب في إدخال تغيير من هذه الناحية في هذا العام».

لقد شاطر بالكامل وزير الشؤون الخارجية وجهة النظر هذه غير أن الأحداث تتابعت بسرعة، ففي 27 من يوليو 1916 بادر الملازم لونوار الذي لاحظ نقصان المؤونة وشعر بأنه بات تحت رحمة التجمعات التي صارت تحدث في الشمال والتي انتهت في ديسمبر إلى ضرب حصار على أغداس، بادر تجنباً للفشل الذريع إلى إخلاء تيبستي من تلقاء نفسه وإلى الهروب إلى بيلما. وفي رسالة وجهها الحاكم العسكري العام انغولفان إلى الوزير يشرح له فيها هذه الأحداث، قال هذا الحاكم العسكري: «لا أدري إذا كان الملازم لونوار قادراً على البقاء في بارداي أم أنه قام بواجبه عندما تحمل مسؤولية الإخلاء السريع. لكنني أعتقد على كل حال أنه في الواقع وضع حداً لوضع سيىء بكل صراحة ولعله جنّبنا بهذا فشلاً وإذلالاً كانت عواقبهما ستكون وخيمة جداً ومهما يكن من الأمر فإنني لا أزال أكثر من أي وقت مضى من أنصار التخلي عن تيبستي لمصلحة محتليه راهناً مهما يكونوا. لكن إذا حملت دوافع

أجهلها الحكومة الفرنسية على إعادة احتلال هذه المنطقة فإنني أطلب بإلحاح ألا توكل إلى إفريقيا الغربية الفرنسية مهمة غزو وإدارة هذه الصحراء القاحلة وغير المفيدة وغير الآهلة بالسكان».

ذلك أن امتلاك تيبستي ليس نعمة من الآلهة، فكل الضباط من رتبة عقيد وكل مفوضي الحكومة في تشاد حاولوا وهي ظاهرة فريدة في الحوليات الاستعمارية تقديم هذه المنطقة للجار.

اعتقد القوم في البداية أنه بضم إقليم كانيم (تشاد) إلى زاندار يمكن تسوية الوضع، لكن سرعان ما طرحت جانباً هذه الرؤية للأسباب التالية:

1 ـ الوضع الجغرافي للكاوار ولتيبستي يضع هذه المناطق تحت إشراف السلطة المقيمة في فور لامي.

2 ـ إقليم الكانيم الغني نسبياً بالحبوب وبالحيوانات المخصصة للذبح وبالدواب المخصصة للنقل هو بالنسبة لأراضي تشاد إقليم ضروري لتموين مناطق أخرى مثل بوركو، لكن فصل إقليم كانيم عن أراضي تشاد ستترتب عنه نتيجة وحيدة هي نقل المصاعب التي حددت آنفاً دون تذليلها عملياً.

3 ـ أخيراً، إن دائرة كانيم نائية عن زاندار بحيث لا يستطيع القائد العسكري لأراضي النيجر الاهتمام بها كما هو مطلوب.

لذلك قدمت أسباب أخرى من أجل ضم تيبستي وانغيغمي وبيلما إلى أراضي تشاد.

يعدّ وجود دائرة انغيغمي كما هي عليه (تنقسم إلى وحدتين إداريتين هما انغيغمي وماني صوروا) شبه مصطنع وذلك بسبب رسم حدود نيجيريا، فبسبب رسم هذه الحدود كان القسم الأكبر من دائرة انغيغمي مشكلاً من قطاع ضيّق من

الأرض الآهلة بالسكان والمزروعة. إن الأهالي يلقون مشقة في العيش بهذه المنطقة ويتوزعون أساساً على امتداد الجانب الشمالي من نهر كوما دوغو، ونظراً لقلة تعلقهم بهذه الأرض الجدباء فإن كل الذرائع جيّدة بالنسبة لهؤلاء السكان في اجتياز النهر والانتقال إلى نيجيريا، علماً بأن تنظيم المستعمرة الإنجليزية يقلل إلى أقصى حد التدخل المباشر للسلطات الأوروبية ويترك لسلطة أهل البلاد الدور الأساسي في ذلك. لذلك عندما يحدث نزوح أو هروب من أراضينا نحو نيجيريا فإن السلطات الإنجليزية تعطي أوامر شكلية لا تنفذ على الإطلاق من قبل السلطات المحلية. ومع كل نزوح يتزايد عدد الهاربين من أراضينا والذين يستقرون بنيجيريا.

وبذلك ينخفض شيئاً فشيئاً عدد سكان دائرة انغيغمي دون أن نستطيع القيام بإجراء جدي يحد من هذا النزيف.

إن التسهيلات التي يتوفر عليها هؤلاء السكان للتهرب من سيطرتنا تقلل من خضوعهم لنا. وينبغي أن نضيف أن هؤلاء السكان لهم بعض الدوافع التي لا مراء فيها والتي تحملهم على عدم الرضا؛ ذلك أنه ضماناً لسلامة وصول التموينات الخاصة بفرقتينا في أنغيغمي وبيلما ينبغي من أجل قطع المسافة بين ماني سوروا وأنغيغمي مطالبة هؤلاء السكان الفقراء بعدد مرتفع نسبياً من الدواب لنقل التموينات مما يثير غضب ملاك هذه الدواب. إن ذلك يمثل الدافع الرئيسي في النزوح إلى نيجيريا.

لقد طرحت جانباً هذه المقترحات أيضاً، وما تزال دائرة كاوار وتيبستي تابعة لزاندار. وعلى الرغم من بعض المواجهات فإن الانسجام قائم بين زاندار وتشاد: من ذلك مثلاً أن سرية أصحاب المهاري في الكاوار التي انطلقت من بيلما في مارس 1921 والتقت بسرية أصحاب مهاري الكانيم بين تيبستي وبوركو قد ضمنت الاتصال السياسي مع تشاد وأكدت خضوع التبو في هذه المناطق.

5 ـ الأزلاي من الآيير إلى الكاوار:

إن الأزلاي هي عبارة عن قافلة صحراوية كبيرة كانت تقوم مرة أو مرتين في العام بجلب الملح من بعض النقاط في الصحراء حيث يوجد هذا الإدام الثمين كمنجم.

تعتبر واحة فاشي في إقليم أغرام من أغنى الواحات بمناجم الملح لذلك تزورها مرتين في العام، في أكتوبر ـ نوڤمبر وفي مارس ـ إبريل قافلة ضخمة تتجمع في إقليم الآيير. إن عناصر طوارق الآيير تمثل أغلب المشاركين في هذه القافلة التي تشارك فيها أيضاً عناصر من قبائل زاندار وتساوا وتاهوا. إن أزلاي آيير وفاشي هم من الطوارق مثلما أن أزلاي بيمبكتو وتاوديني هم من العرب.

يتم تجميع قافلة الشتاء في بوركوت ما بين 15 و20 من اكتوبر. وتتكوّن فرقة حراستها حتى فاشي من فريق أصحاب المهاري في إقليم الآيير. هذا وتبقى معظم الجمال في فاشي، بينما يواصل بعض منها الرحلة حتى بيلما تحت حراسة فريق أصحاب المهاري في إقليم الآيير الذي رافق حتى فاشي أهل الكاوار الذين جاؤوا بدورهم لجلب الملح.

أما قافلة الربيع فتتجمع في بوركوت ما بين 10 و15 من مارس: إن الرحلة قاسية جداً، فاجتياز صحراء تينيري يتطلب قضاء 5 أيام بدون ماء، لذلك فإن قافلة الشتاء تكتسب أهمية أكبر لأنه يمكن من خلالها العثور على الماء والمراعي فضلاً عن قلة الحرارة. هذه القوافل كانت تعد 700 جمل في 1919 و3600 جمل في 1920. ومع حلول السلام فإنها ستستعيد إعدادها في الماضي: ما بين 20 و25 ألف جمل. هذا وقد احتوت قافلة شتاء 1920 على 30 طنا من الحبوب وكثيراً من القماش وكميات الزبدة والسكر والشوكولا، وكانت تضم 1400 جمل واصلوا الرحلة حتى بيلما، وفي طريق العودة رجعت محملة بالملح والتمور.

أما قافلة الربيع فلم تتجاوز حتى الآن الألف جمل (700 في 1919 و800

في 1920 و770 في 1921). لقد كان هذا العدد يتراوح قبل الحرب ما بين ألفين وثلاثة آلاف جمل. وخارج هاتين القافلتين التقليديتين يمكن الإشارة إلى قوافل صغيرة من 100 أو 200 جمل كانت تتنقل في العام بين بولتوم وفاشي. عموماً يشارك في هذه القوافل قوم ايراولان الذين يستخدمهم قوم أماجاران ويحصلون من أجل ذلك على الأجور التالية:

أ - **بالنسبة لقوافل الآيير في فاشي أو في بيلما**: كتلة من الملح عن كل جمل محمّل.

ب - **بالنسبة لقوافل الهاوسا في الآيير**: تدفع عن كل جمل محمّل شكوة من جلد الماعز مليئة بالعسل.

ج - **بالنسبة للقوافل من غات إلى كانو**: عن كل جمل محمّل يدفع التجار خمس أو سبع ثمن النقل.

إذا كانت فاشي هي أغنى مناجم الملح فهناك نقاط أخرى في الكاوار والآيير مثل تغيدا التي بها مناجم ملح هامّة تردها قوافل القبائل المجاورة.

هذه المناجم يتم استغلالها ضمن وحدات صغيرة وتردها قوافل القبائل المجاورة.

يفضل البدو الرحل استعمال ملح المناجم عن الملح المستورد. إنهم يولونه أهمية كبيرة في تربية الجمال حيث من المعروف أنهم يعالجون به الجمال من حين إلى آخر. لذلك فهو مطلوب على الرغم من ارتفاع ثمنه. إن ملح المناجم ينافس بسهولة ليس فقط الملح الأوروبي المجلوب من نيجيريا في المستعمرة وإنما حتى في أسواق نيجيريا نفسها. لقد ساهمت النوعية العالية لملحنا الصحراوي بقوة في توازن المبادلات محلياً منذ 1917.

ونورد هنا بعض الملاحظات التي وضعها الرائد موري حول واحتي فاشي وأغرام اقتطفناها من تقرير بتاريخ 1907.

الملح هو المصدر الكبير لواحة أغرام، فالسكان يعيشون بفضل هذه المادة لأنها تستجلب كل عام إلى أغرام وبيلما عدداً من القوافل التي تأتي للتموين. وفي مقابل ملحهم يحصل السكان من أصحاب القوافل على الذرة البيضاء والخضار واللحافات والملابس والمواد التي تنقصهم.

يتم استخراج الملح كما في بيلما من خلال ترك الماء المالح يمر في سلسلة من المساكب المستطيلة أو المربعة يفصل بعضها عن بعض حواجز صغيرة هي خليط من التراب والملح تشبه في مجموعها سبخة ذات حجم محدود. عندما يذوب الملح في الماء يتحول إلى طبقة شفافة تطفو على سطح الماء ثم تتكسر وتغوص في الماء، وبعد أن تتكرر هذه العملية عدة مرات يتم استخراج الملح الراسب من القاع ويصفف على الأرض، ثم تتواصل عملية رشه بالماء المالح وبعد ذلك يوضع في قوالب من سعف النخيل أو في قصعات من الطين، وعندما يتماسك يتم سحبه في شكل سبائك جاهزة للبيع.

تمر عدة أيام حتى يتحول هذا الخليط إلى ملح خام لذلك يتم صقل سبائك الملح بمعدل يوم من كل عشرين يوماً، لكن عملية الصقل سريعة فالورشة التي تضم خمسة عمال تستطيع دون عناء في اليوم الواحد صقل 150 سبيكة من الملح.

لكل مسكبة مربعة أو مستطيلة مالك. وكل أفراد قوم القانوري يملكون بدون استثناء مسكبة مربعة أو مستطيلة أو أكثر خلافاً لقوم التبو الذين لا يملكون شيئاً من ذلك.

كذلك يستطيع كل فرد بعد الحصول على ترخيص من شيخ القرية أن يقيم مساكب للملح إذا افترض وجود مناجم ملح على أراض ليست ملكاً لأحد.

توجد مساكب ملح في أغرام نفسها وفي غابات النخيل بجبل فوسو

ويعمل السكان طيلة العام. لكن صقل سبائك الملح لا يتم إلا أثناء فترة مجيء القوافل الكبيرة ما بين أول اكتوبر ونهاية نوفمبر عموماً.

ملح أغرام أقل صفاء وأقل نوعية من ملح بيلما. ويباع بأقل ثمن في أسواق زاندار وكانوا وطاهوا غير أن ثمن الشراء من المصنعين لا يختلف كثيراً في بيلما وأغرام، إنه ثمن زهيد للغاية.

يتم شراء سبيكتين من الملح تزن كل واحدة قرابة 12 كيلوغراما مقابل ثلاثة أمداد من الذرة البيضاء أو الفاصوليا المحلية أي حوالي 4 كيلوغرامات. وبما أن الكيلوغرام من الذرة البيضاء يساوي 0,05 فرنك في زاندار وأزبين فإن سبيكة الملح تكلف حوالي 0,10 فرنك بالنسبة للمشتري الذي يبيعها ما بين 8 و10 فرنكات في أسواق الجنوب.

كذلك يمكن الحصول على سبيكة من الملح مقابل لفافة صغيرة من القطن، أما اللحاف الذي يساوي حوالي أربعة فرنكات فيمكن مبادلته بقرابة 40 سبيكة من الملح.

ليس هناك نطرون (كاربونات الصوديوم) في أغرام، غير أن السكان يحصلون عليه من إقليم كاوار. إنهم يكثرون من استهلاك هذه المادة إما من أجل حيواناتهم، وإما كدواء، وإما لطهي الخضار التي يزرعونها.

العقيدة والفرائض الدينية

1 ـ العقيدة:

أ ـ يتخذ الله (اركاوا)(*) في الأساس طابعاً تجسيمياً. إنه واحد وتلك نقطة لا مراء فيها. إنه يحتل في السماء نقطة لا تصل إليها أنظار الناس، ومع ذلك فهو موجود في كل مكان، وبصفته الحكم العدل فإنه يمارس سلطاناً كونياً. إنه قضى بألا يكون على اتصال مباشر مع العباد لذلك عهد برسالته إلى مبعوثيه من الإنس (الأنبياء) وإلى ملائكته. إنه لا يتدخل مباشرة إلا عند ولادة الطفل وعنده إيناع الذرة البيضاء، هذا ويختلط الملائكة بالناس من غير أن يراهم أحد في سائر الأيام خاصة في مساء الجمعة وفي الأعياد الدينية وفي كامل رمضان. هذا التصور للإله، الأكثر نقاء عند الشعوب الأكثر تعلماً وتهذيباً مثل البول وبعض قبائل الهاوسا والكورتيي يقابله تصور خشن لدى الأجناس البدائية.

ب ـ محمد، محمدو، «النبي مامادو» أبوه هو عبد الله. أمه اميناتو ماتت مساء ولادته فعهد به إلى خالته حليماتو(**). ولما كانت هذه الأخيرة قد فقدت

(*) أركاوا: بلهجة الهوسا.

(**) يضاف المقطع الصوتي. تو. من باب التبرك إلى أسماء النساء اللاتي لهن علاقة بالنبي.

حليبها منذ زمن طويل فقد أعدت له شراباً من الذرة البيضاء وغذته به طوال عامين.

كانت طفولة محمد سعيدة للغاية تخللتها حادثة معجزة: أثناء تشاجره مع أحد أقرانه ضربه هذا الأخير ضربة عنيفة، عند ذلك نزل ملك إلى الأرض وأخذ الطفل محمد وحمله إلى الله، فشق الله صدر الطفل ونزع قلبه فطهّره وأودعه في مكانه، وبعد أن ضم صدره رجع محمد إلى الأرض، ومنذ ذلك اليوم بعث نبياً عن الله.

في سن الرجولة تزوج محمد على التوالي أربع نساء وأنجب منهن ثمانية أبناء: 4 أطفال و4 بنات توفاهم الله في سن مبكرة، ولم تعمّر سوى الأخيرة منهم أي فاطمة. أولى زوجاته خديجتو وهي امرأة من قبيلة الهوساس كوكا. كان محمد ينام عادة مغطى الرأس وكانت الملائكة تزوره في نومه، وكانت خديجتو تكشف عن زوجها اعتقاداً منها أنها تقوم بعمل جيّد لكن ذلك كان كافياً لإجلاء الملائكة. وعندما اتضح لها الأمر توقفت عن ذلك ورجعت الملائكة على عادتها.

في إحدى الليالي قرأ الملك جبريل هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾. وانطلاقاً من هذه اللحظة كانت بداية بعثته، غير أن دعوته لم تلق في البداية تعاطفاً لكنها انتصرت في النهاية بفضل الله.

مات محمد في سن 63 سنة وقد أتاه جبريل بالوحي إلى آخر ساعة من عمره. وفي كل يوم كان 41 من الكتبة يجتمعون في داره ويسجلون ما يمليه عليهم من الوحي الذي أتى به الملك جبريل. وقد وافاه الأجل قبل أن يجمع كل الصحف التي كتبت عليها الآيات القرآنية؛ لذلك تم جمعها من قبل ستة من الصحابة من بينهم الخليفة عثمان، تلك هي طريقة جمع القرآن.

لقد اعترف وقبل جميع الناس في عهده بشرعية بعثة النبي. إن الله كلّف

محمداً بمهمة فيها النجاة حيث كان الناس آنذاك يعيشون في جاهلية، فقد كانت الأخلاق والفضائل مجهولة وكانت الوثنية متفشية فكان محمد نور هؤلاء الناس ودليلهم.

ج ـ الإيمان بالبعث ويوم الحساب وبالآخرة منتشر جداً. ولا شك أن تلك من نعم الإسلام لأنه أراح هذه النفوس من همومها المادية، ومع ذلك ليس من النادر اليوم أن يسمع المرء الأهالي في بعض المناطق مثل غايا وهم يعلنون أنه لا شيء هناك بعد الموت على الرغم من أن الإسلام قد مرّ من هنا.

بعد الموت يعرض المتوفى على محكمة الأنبياء ويحصل منذ تلك اللحظة وهو ما يزال في القبر على الثواب أو العقاب لما فعله في حياته. إن جميع الناس سيبعثون في اليوم الآخر عندما ينفخ الملك نفخته إيذاناً بقيام الآخرة. . عند ذلك يعرض كل إنسان على الحكم الأكبر وكتابه في عنقه قد سجلت فيه جميع أعماله من حسنات وسيئات ثم يضع اللّه الميزان وينطق بالأحكام.

يكثر في خطب الأئمة ومحاضرات العلماء وأحاديث الناس تصوير الجنة ونعيمها والنار وعذابها حيث ليس للمعذبين من راحة سوى موسيقا الطبول الشيطانية.

د ـ منذ موت محمد لم تبق الأرض بدون ممثل عن اللّه، ففي البداية كان هناك خلفاء الشرق غير المعروفين كثيراً، أما اليوم فهذا الممثل هو سلطان استانبول. . إنه حاكم قوي يتحكم في الأرض بل إن سلطانه يشمل المسيحيين أيضاً، لكن صحيح أن هؤلاء المسيحيين المتوفرين حالياً على أسباب القوة يقاومونه. ويبقى أنه على كل مسلم طاعة الخليفة ومبعوثيه وتقديم المال له.

كان قصر بورنو يقدم في منتصف القرن التاسع عشر هدايا كثيرة لسلطان استانبول لكن هذه الهدايا قلّت أهميتها بعد ذلك وانقرضت هذه العادة مع

الاحتلال الأوروبي أما في زاندار فلم يرسل القوم هدايا إلى القسطنطينية لكن التقاليد تؤكد أن السلطان تنبيمو أرسل مراراً هداياه إلى المسجد الحرام في مكة.

إن شريف مكة ليس بإمام الجماعة الإسلامية، إنه نوع من المفتي الكبير وهناك عدة أمثلة خاصة لدى طوارق الآيير عن الفتاوى التي طلبها منه الناس لتسوية خلافاتهم.

هـ ـ الاعتقاد في المهدي غامض وكثيراً ما يكون فاسداً. فإذا كان بعض المتعلمين يعرفون مهمته على وجه الدقة فإن العامة تخلط عادة بين المهدي والمسيح الدجال، فهي تجعل من المهدي نمطاً للكفر وللحقد على الإسلام. إنه أكبر أعداء النبي الذي سيهزمه ويرد الجميع إلى الإسلام. ومهما يكن من أمر فإن القوم يعتبرون أن الاعتقاد في المهدي ليس ضرورياً.

2 ـ الفرائض الدينية:

أ ـ تحمل الصلوات المكتوبة الأسماء التالية:

المناطق الغربية (جارما سونغاي)	المناطق الشرقية (الهاوسا)	الصلوات
سوسوبا سينغا	أسّوبا	الصبح
الولا	الزفار	الظهر
اللاصار	لاصار	العصر
الماري	ماغاروبا	المغرب
طافا	ليشا	العشاء

تتمثل الصلاة بالنسبة لغالبية المؤمنين في قراءة سورة الفاتحة وفي ترديد عبارة «اللّه أكبر» أثناء القيام بعدة حركات تعبدية. وعلى العموم لا يقيم القوم بانتظام سوى صلاتي الظهر والمغرب، ولا يحافظ على جميع الصلوات سوى

جماعة المرابطين (المورابو) الذين يكثرون أيضاً من النوافل والتسبيح. كذلك لا يراعي القوم كثيراً شروط وواجبات الصلاة: لا يتحرون القبلة كثيراً ويخلطون في السجدات ويتيممون بالتراب بينما يوجد الماء على مقربة منهم، والملاحظ أن البدو لا يستعملون الماء في الوضوء حتى ولو وجدت بركة ماء على بعد متر واحد منهم.

ب ـ الزكاة منتشرة لدى جميع السكان لكنها ليست الزكاة الشرعية وإنما هي الصدقة نظراً لطيبة وكرم هؤلاء الأقوام بمن فيهم الطوارق والتبو الذين يتميّزون بالنخوة والكرم أكثر مما يبدو عليهم، ذلك أن أحداً لا يستطيع التهرب من هذا الواجب الاجتماعي الذي يكثر فيه حب التظاهر. ومع ذلك فقد نظمت الزكاة والعشر في فترات كانت فيها السلطة المحلية قوية نسبياً وقادرة على إدراجهما ضمن القانون الاجتماعي.

كان أعوان السلطان يجبون ما بين العشر ونسبة واحد من عشرين من المحاصيل وكانت نسب الزكاة على النحو التالي:

عجل عن كل 30 بقرة

بقرة عن كل 40 بقرة

نعجة عن كل 5 من الإبل

نعجتان عن كل 10 من الإبل

جمل عن كل 25 من الإبل

ويتم توزيع ربع الزكاة بين الفقراء والمرابطين والمساجد، أما اليوم فقد أهملت الزكاة حتى عند قبائل البوول، ولم يبق سوى العشر منتشراً في عدة مناطق. هذا ويقوم رؤساء الدوائر بجباية وتوزيع العشر.

ج ـ الصيام مثله مثل باقي الفرائض الشرعية لا يراعى بانتظام إلا من قبل

بعض عشائر الطوارق. ومن النادر صيام رمضان كاملاً إلا لدى عدد قليل من المرابطين، ذلك أن معظم المؤمنين يكتفون بصيام اليومين الأول والأخير من رمضان، غير أن بعضهم يضيف صيام أيام أخرى من رمضان وذلك من باب التظاهر والتفاخر، لكن من الواضح أن ما يدفعهم إلى ذلك هو التكبر وليست التوبة.

لهذه الأسباب لا تلقى مواعظ المرابطين في هذا الباب نجاحاً يذكر. ففي عام 1919 قام الإمام برغونا بحثّ أهالي غوري على مراعاة الأوامر الشرعية وهددهم بأشد العقاب وخاصة بنقصان المحاصيل وبالجدب إن هم تمادوا في عصيانهم.

وعلى الرغم من أن البعض منهم تأثر بهذا الوعيد فإنهم ضاقوا ذرعاً بالصيام بعد أيام قليلة.

كان هذا الفتور موجوداً قبل احتلالنا. فيقال: إنه في عهد سلطان زاندار، سليمان بابا كان كثير من المتدينين لا يصومون سوى اليوم الأول واليوم الرابع عشر من رمضان. وكان المعلم (ملام) غاجي ذي الشهرة الكبيرة في إقليم داماغريم لا يراعي الأوامر القرآنية في هذا الباب.

د ـ فريضة الجهاد المقدس هي واجب نظري في المناطق الشرقية والغربية على حد السواء. ولا أحد يتصور إمكانية تطبيقها، لذلك يتم تجسيد هذه الفريضة من خلال مقاومة الوثنيين أكثر من مقاومة المسيحيين، ومع ذلك فإن العلاقات بين المسلمين والوثنيين في العديد من الأقاليم جيدة بدرجة يصعب معها على المرابطين حمل الطرفين على العداء، غير أنه ينبغي الاعتراف بأن هذا الدافع يستغله المحرضون الدينيون في فترات التوتر لزرع البلبلة في النفوس.

هـ ـ يعتبر الحج إلى الأماكن الإسلامية المقدسة نادراً جداً، ومع ذلك يتضح من خلال المكانة التي يحتلها في الأحاديث أنه وسيلة للتقارب مع

الشرق. فالقوم يتصورون مكة عبارة عن مسجد مترامي الأطراف تفتح أبوابه على الجهات الأربع، لا يدخله الحجاج القادمون من الغرب أي السود إلا من الباب الغربي، وعلى بعد مسافة قصيرة من هذا الباب يجلس قوم كفرة في الداخل يبيعون الذهب. لذلك فإن الكثير من الحجاج يصيبهم الجشع فيرجعون على أعقابهم، أما المؤمنون الصالحون الذين يحتقرون عرض الدنيا فيتجاوزون ذلك ويصلون إلى الكعبة المقدسة. يضاف إلى ذلك آلاف التصورات الصادرة عن مخيلة الرواة والتي تصف ما يجري في الحج.

يتم التحضير للسفر إلى مكة عدة سنوات حيث يقوم الحاج بادخار الأموال والتماس العطايا من المرابطين والمؤمنين في منطقته. كذلك هناك طريق يتم اتباعها أثناء هذا السفر: طريق الشمال الطرابلسية عن طريق أغاداس وغات وغدامس وصولاً إلى طرابلس وهي أكثر الطرق استعمالاً وأضمنها سلامة. وهناك أيضاً طريق الشرق مروراً بالباقرمي والوداي والسودان المصري وصولاً إلى سواكيم، وتعتبر هذه الطريق مليئة بالمخاطر وطويلة، لم يسلكها في الماضي سوى أهل تشاد.

يحمل الحجاج عادة انطباعاً جيداً عن رحلتهم ناسين بسهولة كل المتاعب التي يتعرضون لها في الجزيرة العربية. إنها ظاهرة عامة يمليها الإيحاء الذاتي. وعند وصول الحجاج إلى مكة يستقبلهم مورابو البقاع المقدسة ويقدمون لهم الملابس لكن هؤلاء الحجاج يعترفون أنه لو طالت مدة إقامتهم لقلّ الاهتمام بهم.

بعد عودتهم إلى البلاد لا يلقى الحجاج حظوة مميّزة، ففي البداية يستجلبون الاهتمام ويستغل بعضهم هذه الوضعية لتجميع بعض العطايا والهدايا لكن هذا الاهتمام سرعان ما يتبدّد خاصة وأن «المعلمين» المحليين لا يتورعون عن الطعن في هؤلاء الحجاج الذين يتبرمون كثيراً من ذلك.

بعد ذلك يصبح هؤلاء الحجاج لا يملكون من مصادر الرزق سوى العمل

في قراهم ومتاجرهم مثلهم مثل الآخرين. وعلى العموم لا يمكن القول: إن الحجاج يجنون مكسباً كبيراً من سفرهم فهم في معظم الحالات جهلة لا يحملون من الشرق سوى انطباعات سريعة وخاطئة: إنهم لا يجنون لمصلحتهم ولمصلحة بني بلادهم فائدة تذكر من هذا الحج الطويل والشاق والمكلف. ولتفسير قلة عدد المتعلمين في الذهاب إلى الحج تؤكد الروايات والتقاليد عن خطأ أو عن صواب أن السلاطين كانوا لا يرغبون في الانفصال عن مستشاريهم وأعيانهم.

لا تتغير كثيراً نسبة عدد الحجاج في المناطق الشرقية والغربية، ففي دائرة نيامي انتقل في بداية احتلالنا عدد من الأهالي خاصة قوم صونغاي ـ اديورو ـ وسيندات بورا ـ إلى نيجيريا حيث استقروا طويلاً في منطقة ـ سوكوتو ـ وكانوا عموماً من جماعات المورابو والمتعلمين الذين يخشون من التعرض للمصاعب معنا. ولا شك أن تغرّبهم وجوارهم لشيوخ سوكوتو قد فجّرا مشاعرهم الدينية، فقد سلك الكثير منهم نفس الطريق التي يسلكها قوم فوتانكي لكن دون الاختلاط بهم، فواصلوا طريقهم في عزلة وضمن مجموعات صغيرة، وتوقف البعض منهم في الطريق، وواصل البعض الآخر سيره بعد فترات طويلة من التوقف ولم يرجع سوى واحد منهم هو حمادو الكالي إنه يعيش في دعة وطمأنينة في تيلابيري حيث يزرع بستانه. كذلك تتحدث الروايات عن وجود قرابة 15 فرداً منهم في مكة وضواحيها.

كذلك تتحدث الروايات عن 6 حجاج في دائرة تاهوا وعن ثلاثة حجاج في مقاطعة داكومباي وعن حوالي عشرين حاجّاً في دائرة زاندار وعن اثنين في دائرة غوري وعن حاج في دائرة ماني ـ انغيغمي. فضلاً عن ذلك هناك عدد من الأفراد الذين ذهبوا إلى الحج منذ عشر سنوات أو خمس عشرة سنة ولم يعودوا. ولعل معظمهم قد مات في الطريق.

كثيراً ما تختلط الحيل بظواهر التوبة، فسكان البلاد يشيرون بالبنان إلى

العديد من الأفراد الذين قاموا برحلة إلى إقليمي الباغرمي ووداي ثم رجعوا لابسين عمامة كبيرة وحاملين لقب الحاج.

لنذكر في النهاية أن لقب الحاج الذي يضاف إلى اسم الميلاد لا يعني بالضرورة أن حامله قد حج فعلاً، فعادة ما يمنح هذا الاسم للطفل الذي يولد في شهر ذي الحجة كما يمنح للطفل الذي يولد أثناء مرور أحد الحجاج.

وللإيجاز لا يبدو رغم غياب القناعات وترك الفرائض الدينية ورغم الفتور الشامل أن القيم والأخلاق العامة متدنية بالمقارنة مع ما هي عليه في أماكن أخرى. ذلك أن الالتزامات التي يمليها الضمير الفردي والروابط الاجتماعية تسد هذا النقص بما فيه الكفاية، فالحياة بسيطة للغاية والحاجات قليلة جداً. فمن العام إلى العام يتوصل كل واحد خلال شهر من العمل إلى توفير معاشه ولباسه من الأرض وتتكفل الجماعة من خلال تضامنها التقليدي بمصير البؤساء وحتى الطفيليين. إن كل واحد يقبل دون غيظ أو مرارة هذا الكفاف المسوّي بين الجميع الذي يجعل عيشة الزعيم شبيهة بعيشة رعاياه، بل حتى الأسرى أنفسهم عندما يقبلون وضعيتهم، يتمتعون بحِلم الجميع. ثم إن السرقات نادرة رغم أن المحاصيل تترك في الحقول وتوضع أحياناً بعيداً عن القرى في مطامير هشة يستطيع كل مار الاستيلاء عليها، ورغم أن الحيوانات الأهلية تسرح في البراري بدون حراس، ورغم أن الأكواخ تبقى مفتوحة. أما الجرائم فهي شبه معدومة. كذلك يحرم تعاطي الكحول فيما يقل انتشار تعاطي التبغ ولعب القمار.

3 ـ الأعياد الدينية:

يتم بانتظام الاحتفال بأربعة أعياد تقليدية في الإسلام.

1 ـ العيد الكبير أو الكمسي لدى قوم **سونغاي** أو **سلابابا** لدى **الهاوسا** أو **لايا** في عدة مناطق أو **طافاسكي** لدى طوارق **الآيير**، هو عيد يجري الاحتفال به

في كل مكان. ففي ذلك اليوم يتوفر كل كوخ مهما كان فقيراً على ذبيحة، ويجوب سماسرة مختصون البلاد طولاً وعرضاً قبل هذا الموعد بزمن طويل لشراء هذه الذبائح التي تتم تربيتها وتسمينها بعناية في البيوت مما يجعل أثمانها ترتفع كثيراً.

جميع المسلمين يحتفلون بهذا اليوم الذي يفضل فيه ذبح الضأن. وإذا لم يتوفر ذلك تكون الضحية من الماعز أو الإبل، أما الفقراء فيحصلون من الأسر الغنية على قطعة لحم كبيرة من الشاة المذبوحة، غير أن البلاد لا تحيي احتفالاً خاصاً بهذه المناسبة وإنما يكتفي جماعة المرابطين باتباع المراسيم الدينية التقليدية.

2 ـ العيد الصغير أو عيد الفطر يسمى لدى قوم **سونغاي وجارما** «**ما هيو دينغارو**» ويطلق عليه **الهاوسا والبيربيري** اسم «**سورومبولا**» ويسميه الطوارق «**ناغروم رمضان**». وتقتضي القاعدة في كامل بلاد السود أن يأكل المرء كثيراً في ذلك المساء، بل ينبغي على المرء أن يجهد نفسه في ذلك حتى لا يغضب اللّه. هذا ويرافق هذا الاحتفال والاحتفالات الأخرى الإفراط في شرب الجعة المخمّرة.

3 ـ تتميّز عاشوراء التي يأتي ذكرها في بداية العام الجديد بإقامة الصلوات الجماعية ولا تنظم خلالها أفراح خاصة باستثناء موائد الطعام والشراب وتسمى «**ديروساتسيانا**» في المناطق الغربية و«**بلا غابيري**» لدى **الهاوسا والبيربيري**.

4 ـ المولد أو عيد ميلاد النبي يسمى «**غومانري كورا**» في المناطق الشرقية. ويتميّز بإقامة الموائد والصلوات.

وفي بعض المقاطعات يضاف إلى ذلك حفل «**التام تام**». (ضرب الدفوف).

5 ـ تكثر الصلوات الجماعية الخاصة التي يتوجه فيها الناس إلى اللّه

متضرعين عند الشدائد. إن أكثر هذه الصلوات تواتراً هي: صلاة الاستسقاء لطلب الغيث النافع وصلاة الكسوف لطلب رجوع الشمس عندما تكثر الغيوم والرياح الرملية. يقوم الإمام في هذه المناسبات بحثّ السكان على الصيام ثم يخرج الجميع من زعامات ومرابطين ومؤمنين بسطاء لابسين لباساً متواضعاً ويتوجهون سيراً على الأقدام إلى المصلى الجماعي المعتاد حيث يقلبون لباسهم ويقيمون الصلوات الخاصة في هذه المناسبة. وكثيراً ما تنضم النساء إلى هذه الصلوات الجماعية بعد أن يلبسن ملابس الرجال. طبعاً إن هذه التظاهرات قادمة من شمال إفريقيا لكن هناك تظاهرات أخرى ذات أصول محلية مثل احتفالات «**الكورتاي**» خلال أربعة أو خمسة أيام في رمضان أو بمناسبة الزواج، ويبدو أن هذه الاحتفالات مجلوبة من «**ماسينا**» البلاد الأصلية لكثير من الأهالي.

6 ـ الأعياد الفرنسية (14 من يوليو و11 من نوفمبر وأول يناير) لا تترتب عنها أية تظاهرة دينية غير أن المرابطين (بالجمع) يشاركون فيها طوعاً لإظهار ولائهم، فضلاً عن ذلك فإن القوم لا يدركون على وجه الدقة دلالة هذه الاحتفالات وبما أنهم هنا لا يميّزون كثيراً بين العلماني والديني فإنهم يعتقدون أنها تمثل بعض سمات الفكر المسيحي. ففي **غوري** مثلاً يعتقد القوم أن احتفالات 14 من يوليو تحيي ذكرى ميلاد سيدنا عيسى أي عيد الميلاد.

4 ـ الطرق الصوفية:

1 ـ ملاحظات عامة: الطرق الصوفية الموجودة على الأراضي هي: القادرية والتيجانية والحركة السنوسية والشاذلية.

تمثل هذه الطرق الصوفية الإسلامية في جميع بلاد السود نوعاً من العلامات الدينية والرايات أكثر مما تمثل مجتمعات متماسكة فعلياً يحدوها التضامن الروحي. ويبدو أن المزاج الخاص لهذه العناصر السوداء يخالف

الرضا والانضباط الطوعي الذي تتميّز به المجتمعات الدينية. صحيح أن الموضة والحماس وتأثير بعض الشيوخ وحتى التمييز العنصري أحياناً هي عوامل قد تحمل في بعض الأوقات مجموعة من الأنصار على الالتفاف حول إحدى الزعامات الدينية فتنشأ عند ذلك طريقة صغيرة تتوشح بهالة من الأسماء مثل القادرية أو التيجانية؛ لأن سيدها يتبع هذه الطريقة الأم على الرغم من أنه مستقل عنها في الواقع. فقوم **الجارما** في مقاطعة **كوبيتاندا**، الذين شاركوا عام 1906 في انتفاضة بالمنطقة وذلك تحت تأثير دعوة مورابو أجنبي اسمه صاحبو قد تحركوا من أجل قضية استقلالية عرقية وبالتالي من أجل نوع من الحرية الوطنية أكثر مما تحركوا بدافع الدين والتضامن الإسلامي، بل إن هؤلاء القوم لم يترددوا في القيام بتقديم قرابين وثنية: ذبح بقرة سوداء ثم ذبح بقرة حمراء وتعاويذ لكسب الأرواح... إلخ. غير أنه تم حل هذا المجتمع الصغير بإلقاء القبض على زعيمه صاحبو وقتله.

من ذلك مثلاً أن المعلم **أبَا تشيلوم** من مقاطعة **كولوري كوكو** تحوّل بفضل حماسه الديني إلى مؤسس زاوية تيجانية الاسم لكنه في الواقع كان يسيطر عليها تماماً، فسلطته المعنوية حملت المؤمنين على الانضباط. فضلاً عن ذلك فإن الزكاة كانت تجبى سرة واحدة في العام وكانت قرية هذه الزاوية نظيفة ومنظمة يقوم فيها كل فرد بعمله فيما طرد منها المتكاسلون والنساء الباغيات إما بواسطة قرار جماعي وإما بسبب مناهضة السكان لهم. هذا ويقيم هؤلاء فرائضهم الدينية ويحافظون على مواقيتها على الرغم من أن جميعهم ليسوا بأتقياء. ومهما يكن من أمر فإن مثل هذا الانضباط حمل النظام والراحة والاطمئنان للقرية بدرجة أنها أصبحت تذكر كمثال في المنطقة.

بإيجاز إن هذه الطرق الصوفية ليس لها تنظيم داخلي ولا تملك روابط خارجية مع التجمعات المماثلة. إن منتسبيها يجهلون تماماً حقوقهم وواجباتهم. وفي هذا الصدد يقول المعلم القالي أصيل **تيلابيري** المنتسب

للتيجانية، الذي امتلك خلال إقامته في **سوكوتو** وخلال حجه إلى مكة فكرة محددة عن طريقته، يقول وهو يتحدث عن المرابطين المحليين: «يقولون إنهم من التيجانية ولا يعرفون ما تعنيه». ذلك هو الوضع لدى السود. أما لدى البدو من طوارق وتبو فإنه لا وجود لأثر الأوراد الصوفية.

وفي الخلاصة إن القادرية تهيمن بوضوح في دوائر **زندار وطاهوا وأغاداس** فيما تسيطر التيجانية في دوائر **نيامي وغوري وانغيغمي** أما بخصوص دائرة**بيلما** فإن قربها من مركز السنوسية في **بارداي بالتيبستي** يجعل منها مجالاً تابعاً لهذه الطريقة.

في الواقع، تعد الطرق الصوفية الكبيرة عدداً محدوداً من الأتباع البارزين في المستعمرة. إن هؤلاء الأتباع هم أولاً المرابطون ثم قدماء الطلبة وأتباع المعلمين والممثلين الروحيين للتنظيمات الدينية. إنهم جميعاً يولون احترامهم للعلوم التي تلقوها من شيوخهم ويقومون بالدعوة لمصلحة الطريقة التي ينتمون إليها.

يأتي بعد ذلك شيوخ القبائل الذين ينتسبون إلى إحدى الطرق من باب التقليد واكتساب الوجاهة في نظر الأهالي.

أما الأثرياء والدهاة وأصحاب الدسائس فينتمون غالباً إلى عدة طرق (القادرية والتيجانية مثلاً) من باب المصلحة، سعياً وراء توسيع دائرة علاقاتهم في محيط التجارة إذا كانوا تجاراً أو في محيط رجال الدين إذا كانوا من جماعة المرابطين.

هناك قليل من السود الذين يمارسون الذكر الذي تحدده الأوراد ويكتفون عادة بالانتماء إلى الطريقة التي تمارس أبسط الأذكار. ولا توجد في هذه الأراضي زوايا أو دور خاصة بالطرق كما هي الحال في شمال إفريقيا مثلاً حيث لهذه الدور تنظيم داخلي كامل.

في **زندر** يجتمع المنتسبون إلى نفس الطريقة سواء في المصلى أو في مسجد الحي ويقومون بعد الانتهاء من الصلاة المفروضة بممارسة الذكر وراء المقدم ثم يرددون بعد ذلك جماعياً مقاطع من دلائل الخيرات للجزولي.

2 ـ الطريقة القادرية تمثلها عدة فروع تنحدر كلها تقريباً من الفرع الصحراوي ـ السوداني لقبيلة **البكايا**. وقد تحدثت في كتاب لي حول الإسلام في السودان عن تنقلات هذه القبيلة القوية عبر الصحراء وعن دورها التاريخي والديني في أسلمة منعطف نهر النيجر، حيث انتشرت دعوتها وامتدت إلى تخوم إفريقيا الغربية من الاطلنطي إلى تشاد.

فقد ظهرت القادرية في **تونبكتو** في القرن السادس عشر على يد سيدي عمر الشيخ الصالح الكونتي الكبير البكاي. وقد واصل المهمة في أواخر القرن الثامن عشر أحد أحفاده ويدعى سيدي المختار الكبير الذي جاب دعاته الأراضي التي نحن بصدد دراستها.

وفي نفس الفترة تقريباً أسس شريف قدم من بغداد هو سيدي محمد علي البغدادي مدرسة في **داورا** (نيجيريا) ببلاد الهاوسا. عند ذلك تكاثرت أعداد جماعة المرابطين الذين نشروا القادرية. ويوجد حالياً ثلاثة مقدمين ممثلين لهذه الطريقة في **زاندار** مؤهلين لمنح الأوراد. إنهم المعلم **فلالو** في **زينغو** والمعلم حسن في قريته **سامبو غاري** والمعلم **محمدو تشيتيمي** في **البيرمي**. هذا ويبلغ عدد المنتسبين للطريقة قرابة المائة. وبإيجاز يمكن القول: إن القادرية تهيمن لدى قوم **البول** ولدى الهاوسا أيضاً بينما تنتشر التيجانية على وجه الخصوص لدى **البيربيري** والعرب.

3 ـ تهيمن طريقة التيجانية القوية في دوائر **انغيغمي وغوري ونيامي**، وقد جلب مذهبها إلى بلاد السودان عام 1833 بواسطة الحاج عمر كبير المرابطين وكبير الفاتحين، وقد قام ابنه أحمدو شيخو الذي خلفه كشيخ للطريقة بإرسال عدة دعاة مدربين يجوبون الأقاليم الإسلامية لتجنيد الأنصار. ويبدو أن التيجانية

انتشرت في البداية في شرقي البلاد حيث كانت **نيامينا** (نيامي) على ضفاف نهر النيجر **وسوكوتو** في نيجيريا مراكز نشيطة للدعاية. لكن تأثيرها برز على الخصوص في الغرب في المناطق المتاخمة للشمال النيجيري وذلك بسبب القرب من **برنو** لأن أكثر الدعاة انطلقوا من هذه المنطقة الأخيرة. إن الطريقة التيجانية ممثلة راهناً في دائرتي **غوري وانغيغمي** بواسطة مرابط ذي نفوذ كبير هو المعلم «**أبّا تشيلوم**» الذي يقيم في **كولوري كولو** في مقاطعة **يارنيا** التابعة لدائرة **غوري**.

إن كل هذه الطريقة التيجانية الشرقية ترجع في أصولها إلى المعلم باكّي شيخ المعلم أبّا والآخرين. وقد تلقّى الشيخ المعلم باكّي الذي كان مورابو **بورنو** الورد من الشيخ الحاج إبراهيم الذي قدم من مكة إلى **كوراوا** حيث أسندت إليه سلطة منح البركة. وقد ساهمت دعوته في نشر الطريقة بقوة من **غوري** إلى تشاد.

أما في **زندر** فإن مقدّم الطريقة هو المعلم أحمدو. وهناك في **بيرني وزينغو** قرابة ثلاثين من أنصار الطريقة المشاهير نذكر منهم على سبيل المثال المعلم **دان كميارا** والمعلم **محبوبو**... إلخ.

يملك سكان **الهاوسا** الجهلة في **ماجاريا** أفكاراً خاطئة عن الطرق الصوفية ويقول أحد المعلمين: «إن التيجانيين يتّبعون طريقة الصالح التيجاني المنحدر من أصل عربي. إنهم يعتقدون أنهم متفوقون على القادرية أتباع سيدي عبد القادر الجيلاني الذي كان تلميذاً للتيجاني والذي كان أبوه عربياً وأمه من الهاوسا». طبعاً إن المعارف المحلية التي تجعل من سيدي عبد القادر الذي سبق التيجاني بخمسة أو ستة قرون تلميذاً له تفتقر إلى الجدية، لكن الأغرب من ذلك هو أن تمنح لرجل بغداد الصالح أمّاً من الهاوسا حتى تلطّخ نقاوة أصوله العرقية.

في عام 1910 قامت في غرب بلاد **الجارما** مجموعة من التيجانية بفضل

الدعوة التي قام بها مرابط جاء من **كواندا** (شمال الداهومي)(*). فقد لقّن ورد هذه الطريقة إلى حوالي عشرة من المتعلمين وألقى بعض الدروس ثم رجع إلى بلاده تاركاً وراءه جماعة حيّة ونشيطة.

بإيجاز تلقى التيجانية صدى كبيراً في المستعمرة، فمنذ عشر سنوات انضم إليها كثير من المرابطين على الرغم من انتمائهم إلى القادرية. وعندما يسألون عن ذلك يرددون قول الحاج عمر: «القادرية بالنسبة للتيجانية مثل الحديد بالنسبة للذهب».

4 ـ **السنوسية**: أصبح شيوخ **الكفرة** الذين فقدوا كثيراً من هيبتهم بعد أحداث إقليم **الآيير** في عامي 1916 ـ 1917 يمتلكون قليلاً من الطموحات في المستعمرة. وعلى الرغم من ذلك لا يزال لهم أتباع حتى وإن كانوا يمثلون أقلية محدودة العدد.

لقد لقي مذهب الشيخ الكبير محمد بن علي مؤسس الطريقة أول أتباعه في إقليم **كاوار**، وانتشر هؤلاء في حدود 1860 بفضل المرابط الشهير الشيخ إبراهيم المنجروح(**) أصيل سوكنة في محافظة طرابلس. فقد أنشأ هذا الشريف زاوية في **بيلما** ثم قدم إلى **زندر** حيث توفي بعد أن كان من المقربين من السلطان **تانيمو** طيلة عامين. وكان أوّل أسود لقنه الدخول إلى الطريقة السنوسية في **بيرني** هو الإمام مصطفى شقيق الإمام الحالي أبّا، ثم عينه مقدّماً وكلفه بتلقين الورد في إقليم **داماغاريم**.

يبدو أن السنوسية لم تتسلل بجدية إلى إقليم **الآيير** إلا في حدود 1870 بعد أن جاء بها عدّة دعاة أسسوا بين قبائلنا الطوارقية دور تعليم كانت في نفس الوقت مصلى ومكاناً لممارسة ذكر الطريقة. ففضلاً عن دور **عين غال وايغروان**

(*) **الداهومي**: البنين حالياً.

(**) هو الشيخ إبراهيم المجروح ينتمي إلى قبيلة الجماعات وعاش في سوكنة.

التي كانت أهمها يمكن للمرء قبل ثورة 1916 العثور على دور أخرى في **أغلال وطيفيس وسيداوات غلامغا وتشيغازري** لدى قوم اكاز **كازن وجكّا** لدى قوم **غراس وأوديراس** لدى قوم **واي وتاكريزا وتناليسارت** لدى قوم **تاكريزا وتيكاياماس** لدى قوم **تاديلي وتشانتاغودا وتيفغوند** لدى قوم **خازر**. وكانت سبعة من مراكز الدعاية هذه يديرها مقدمون رسميون: **أغلال** (الشيخ خيماجرا) **وطيفيس** (الشيخ عثمان بن محمد) **وسيداوت** (الشيخ الياس بن بوباجي) **وتاكريزا** (الشيخ أحمدو) **وأوديراس** (الشيخ **أحمد طوغادي**) **وتشانتاغودا** (الشيخ إبراهيم بن **قباطا**) **وتيكاياماس** (الشيخ عبد ربه الحاج أحمد).

غير أن معظم هذه المساجد ـ المدارس أهملت الآن وأصبحت خراباً.

في عام 1892 تجوّل المرابط محمد **السنّي** وهو من السنوسيين المتحمسين الذي دعا دائماً إلى توحيد المسلمين ضد البيض، في إقليمي **دامرغو وداماغاريم** ووصل إلى **غيدام بادو** (**بوزا**) في دائرة **تاهوا**. فجنّد بعض الأنصار وأقام طويلاً في **جاجيدونا** حيث أسّس زاوية عهد بها إلى المعلم محمد طالب بن مبارك أصيل عين صالح الذي يشرف حالياً على مدرسة قرآنية في **زندر**.

لقد بقيت **جاجيدونا** مطروقة حتى 1908 واستخدمت كمحطة للقوافل التي كانت تمر بانتظام كل عام قادمة من **طرابلس** عن طريق **غات** ومن **قابس** عن طريق **غدامس** ومن **ورقلة** عن طريق **عين صالح** لكن الحرب الإيطالية التركية أوقفت كل العلاقات الجارية مع الشمال ففقدت بذلك **جاجيدونا** كل أهميتها. وتحولت الزاوية فيها اليوم إلى مجرّد مكان للصلاة يحرسه عربي من **غات** هو سيدي محمد بن صديق الذي يعيش من الهدايا القليلة التي يقدمها له الزوار.

توجد في **زندر** نواة سنوسية مكونة من بعض التجار الطرابلسيين أو الفزانيين الذين استقروا في البلد منذ عشرين سنة ومن الأعيان المحليين. إن أشهر الأتباع من بين الطرابلسيين (وكلهم سنوسيون) وهم:

- **في البيرني**: عبد الكريم دوما ودوما بن دوما والشريف نادل وإبراهيم سوكني وعمّار بن أحمد.
- **في زينغو**: محمد بن صالح ومحمد عمر وزايد بوشوشة وعزيز بن محمد وطاهر بن الفقيه حسن وبيدار زورميط وسليمان الغاتي وأيوبا الغاتي والشريف المختار.

أما مشاهير الأتباع من **الهاوسا** فهم:

محمد ماي لافيا وعبدو صالح ومرابط عبد الله ومعلّم عبدو بن إبراهيم.

إن الزعيم الروحي للسنوسيين في **زندر** هو عبد الكريم دوما الطرابلسي الذي يمارس مهنة حذّاء في **بيرني**.

منذ 22 سنة ينظم الإخوان كل ستة أشهر تظاهرة دينية يومي 9 من صفر و29 من رجب، هذا الاحتفال الذي يجري في بيت المقدم يشرف عليه المدعو الشريف **دود** وهو تاجر من **كانو** له الملايين وقد ولد في **بيرني** وهو ابن الشريف الطرابلسي **قنابة** وجارية قديمة للسلطان **تنيمو** تدعى فاطمة. وبالإضافة إلى أعضاء الطريقة يحضر هذا الحفل أبرز المعلمين في **زندر** الذين يكتفون بتجويد بعض السور القرآنية فيما يمارس السنوسيون ذكرهم ثم ينصرفون بعد الحصول على بركة الشيخ الكبير للطريقة وعلى صدقة.

وبإيجاز يمكن القول: إنه إذا كان بعض المرابطين لنا لا يزالون يخضعون لنفوذ **الكفرة** فإن السنوسية في إقليم **الكاوار** حيث تملك 9 مدارس (مدرستين في **بيلما** ومدرستين في **دوركو** وثلاث مدارس في **فاشي** ومدرسة في اناي ومدرسة في **شاميدور**) باتت جذورها غير عميقة في المستعمرة.

لكن إذا كان السكان لا يقيمون سوى علاقات ودية مع السنوسية فإن المعلمين الذين يمثلونها لا يزالون يشكلون عناصر ينبغي مراقبتها على الرغم من قلتهم العددية. فقد أثبتت السنوسية قدرتها على التحرك في عامي 1916 ـ 1917

ولا شك أن نفوذها المعادي لهيمنتنا قد أعدّ ثورة إقليم **الآيير** ودفع بكل قبائلنا الطوارقية تقريباً إلى التمرد.

5 ـ **الشاذلية**: هذه الطريقة الدينية التي أسسها الصوفي أبو الحسن الشاذلي الذي ولد عام 593 من الهجرة (1196 ميلادية) تنتشر كثيراً في شمال إفريقيا خاصة في الجزائر حيث تملك عدة زوايا. لكنها كانت في إفريقيا الغربية تخضع يوماً بعد يوم لنفوذ التيجانية المتزايد. لذلك فهي ليست ممثلة في مستعمرة **النيجر** سوى عن طريق عدد قليل من الأتباع ثلاثة منهم يستحقون الذكر:

- **في زاندار**: عبد القادر ابن الحاج أحمد **غيطي** أصيل **غدامس**، إنه ينتمي إلى المدانية التي تمثل الفرع الحادي عشر للشاذلية.
- **في عين شاروا (دائرة زندر)**: المعلم الحاج **غوني مامادو** الذي تلقن مبادىء هذه الطريقة منذ خمسين سنة على يد الشريف مبروك في مكة.
- **في شالي وهي قرية في دائرة زندر**: المعلم أبو بكر الحاج الذي تلقى الورد من المرابط المعلم محمدو مقدّم الطريقة في **داورا** بنيجيريا.

التعليـم

1 ـ المستخدمون:

يتكون المجتمع الفكري من عدة قطاعات تمثل بناء هرمياً حقيقياً.

فعلى المستوى الأدنى هناك تلميذ المدرسة القرآنية الذي يتراوح عمره عادة بين 6 و15 سنة. ثم يأتي بعد ذلك «الطالب» أو «المريد» أو «المدجيري» أي طالب العلم. هذا الطالب الذي يحفظ قسماً من القرآن إن لم يكن كلّه، يبدأ في دراسة مبادىء العلوم الدينية والفقه والنحو واللغة العربية ثم يأتي بعد ذلك «الملام» وهو معلم المدرسة القادر على إعطاء الدروس. وللحصول على هذه الدرجة ينبغي حفظ الستين حزباً واكتساب المعارف الأساسية في الدراسات العليا.

ثم يأتي الفقيه الذي يعني أصلاً «الحقوقي» لكنه يعني في الحقيقة هناك المربي الفعلي الذي يستطيع أن يشغل مهام القاضي والإمام والمفتي.

وأخيراً هناك في أعلى الهرم الشيخ أو صاحب الطريقة، الزعيم الروحي للدائرة أو التجمع وإمام الزاوية أو عدة زوايا. إن عدد المتعلمين من سكان البلاد قليل جداً، فباعتراف شيوخ الدين (المرابطين) فإن التعليم جامد

والمستوى الفكري لا يسجل نمواً. إن الحماس القليل لدى جماهير السكان في تعميق معارفهم يهدف خاصة إلى القضاء على شريحة الأرقاء، فالمزارعون مضطرون إلى العمل بأنفسهم في حقولهم لأن غالبيتهم لا تستطيع استخدام مرتزقة؛ لذلك فإن أطفالهم يساعدونهم في أعمالهم الفلاحية مما يلحق ضرراً بالتعليم. كذلك فإن تعليم المرأة غير منتشر فعندما تبلغ الطفلة سبع سنوات تلتحق بالمدرسة طيلة بضعة أشهر خلال عام أو عامين في أقصى تقدير حتى تتعلم الفاتحة وبعض السور القرآنية وتحسن القراءة في الصلاة؛ لذلك فإن عدد معلمات المدارس محدود جداً، فليس هناك أكثر من عشر معلمات في جميع البلاد، والمشهورات منهن اثنتان: المعلمة **هاوا** والمعلمة **ايساتو** في مدينة **غوري** وتتمتع الأولى منهما بتأثير حقيقي.

2 ـ المدارس:

الأرقام: تقول آخر الإحصائيات أن عدد المدارس القرآنية في البلاد يبلغ 970 مدرسة يلتحق بها 4321 تلميذاً. هذه الأرقام لا تحدد إذ كان تعليم القرآن في ازدياد بالمقارنة مع الإحصاءات الداخلية وذلك لأن المدارس غير مستقرة. فهناك مدارس أغلقت أبوابها في العام الماضي لأن معلميها الذين يديرونها كانوا يقومون برحلة طويلة أو غيروا إقامتهم، وهذا مرابط أجنبي آخر جاء من نيجيريا مثلاً سيقيم طيلة العام القادم في دائرة المستعمرة ويجمع حوله عدداً من التلاميذ. كذلك بما أن التعليم تعليم أسري فإن كل ما تتعرض له الأسر يؤثر عليه. وعلى العموم يمكن القول: إن التعليم القرآني يتوقف في معظمه على الوضع الاقتصادي للبلاد وإن المستخدمين في هذا التعليم يهتمون بمصالحهم الخاصة أكثر من اهتمامهم بتعليم التلاميذ.

غير أن عدد المدارس مرتفع بشكل خاص في مقاطعات «الهوسا» من مناطق «زندر» ولدى طوارق «طاهوا». . إن ذلك لا يعني أن السكان أكثر تعصباً

في هذه المناطق وإنما يعني أن أولياء أمور الأطفال يفضلون أن يكتسب أبناؤهم تعليماً يؤهلهم للعمل إما في التجارة أو في سلك رجال الدين على اعتبار أن في ذلك راحة لهم وربحاً كبيراً.

غير أن مستوى التعليم سجّل هبوطاً في مقاطعة «زاندار» حسبما يعتقده الرأي العام، ففي عهد السلطان «تنيمو» كانت زاندار مركزاً تعليمياً هاماً، ففي مدينتي «زنقو» و«بييرتي» كانت هناك قرابة خمسين مدرسة قرآنية رسمية وعشرين مدرسة للتعليم العالي يتردد عليها حوالي ألف طالب. وكان شيوخ الدين «المرابطون» في «داماغاريم» يعطون مثالاً عن الثقافة الفكرية العالية، فضلاً عن ذلك فإن العديد من الشباب من أبناء الشخصيات الدينية وأثرياء التجار يلتحقون بمدن نيجيرية مثل «سوكوتو» و«كاتسينا» و«كانو» و«كاطا غوم» لإنهاء دراساتهم وإتمام العلوم الدينية على أيدي شيوخ مشهورين لكن هذا الزمن قد ولّى.

فدائرة «ميامي» غير مفتوحة كثيراً على التعليم القرآني ولا يتعدى عدد مدارسها 45 مدرسة يدرس بها 200 طالب. إن عدم الاكتراث الديني في «جرما» في القطاع الأوسط وقلة تأثير شيوخ الدين (المرابطين) هما وراء هذا التباطؤ في الحركة التعليمية.

فلا نجد أثراً لمدارس قرآنية رسمية في دائرة «غايا» حيث لا يعمل رجال الدين الذين لا يملكون شهرة تذكر سوى على تعليم القرآن لأبنائهم وأبناء أقاربهم. وهناك مدرستان فقط في «**سنداربورا**»(*) بدائرة «**طيلابيري**» يديرهما **يوسفي خاليلو وغوطو غوري** الرجلان الوحيدان اللذان لهما بعض الشهرة من بين رجال الدين «**المرابطين**». يكاد يكون التعليم مفقوداً في دائرة «**دوسو**». أما دائرة «**دوغونتوشي**» التي تسكنها غالبية من الوثنيين المنقطعين عن الإسلام فليس بها مدارس.

(*) تقع على الضفة اليمنى لنهر النيجر على بعد 15 كيلومترا من طيلابيري.

كذلك فإن عدداً من التلاميذ الذين يترددون على مدارس دائرة «**انغيغمي**» يعدون أجانب عن المنطقة. فمعظمهم يأتون من نيجيريا للتعلم على أيدي معلمين درسوا على شيوخ (مرابطين) مدرسة «**سوكوتو**». وهذه الظاهرة لها ما يقابلها، بما أن هؤلاء الطلبة يلتحقون أيضاً بـ«**بورنو**» لإتمام دراستهم.

كذلك فإن تعليم القرآن لا يزال ضعيفاً في دائرة «**أغاداس**». فعدد المدارس لا يتجاوز إحدى عشرة مدرسة بها 224 تلميذاً وكان إحصاء عام 1916 قبل ثورة «**الآيير**» يعد 44 مدرسة من «**أغاداس**» و«**انغال**» وفي القبائل بها 600 تلميذ وتلميذة.

في منطقة «**كاوار**» هناك 14 شيخ دين «مرابط» منهم 9 تابعون للسنوسيين، يشرف كل واحد منهم على مدرسة. معظم هؤلاء لا يحسن القراءة أميون لا يعرفون سوى القرآن، لكن نفوذهم مناهض لنا، ويتلخص التعليم الذي يقدمونه لتلاميذهم (175 تلميذاً) في دروس التربية الدينية.

يصل حالياً عدد المدارس في «**زاندار**» إلى 34 مدرسة يتردد عليها 360 تلميذاً. إن هذه المدارس التي لا تتميز بطابع خاص تذكر بمدارس شمال إفريقيا.

3 ـ التعليم:

تتطلب دراسة القرآن من السود جهداً كبيراً، ونظراً لجهلهم لمعاني نصوص يحفظونها عن لغة تختلف أصلاً عن لهجاتهم المحلية فإنهم يقضون سنوات طوالا في ترديد قطع من السور المكتوبة على ألواحهم. لذلك فإن القليل منهم يصل إلى درجة «الحافظ» للقرآن. وعلى العموم فإن غالبيتهم تبدي رضاها عندما تتوصل إلى تهجي بعض السور.

هذا التعليم يقدمه معلمون لا يملكون في العموم سوى معارف محدودة

للغاية حيث إن غالبيتهم لم تحفظ سوى القرآن ولا تقدر على تدبر فلسفته.

مبدئياً لا تمثل مهمة المعلم سوى وظيفة شرفية لا توفر الرزق لصاحبها لكن الأسر الثرية تقدم عادة لرئيس المدرسة مساعدة مالية بنسبة 0،25 عن كل تلميذ وعن كل أسبوع وتسلمه في نهاية الدراسة مبلغاً من المال (ما بين 20 و50 فرنكاً) وبعض الهدايا تسمى صدقة التبرك(*) (بقرة وعباءتين... إلخ.) فضلاً عن ذلك فإن التلاميذ يقدمون خدمات صغيرة للمعلم كأن يساعدوه على زرع حديقته ورعي دوابه.

كذلك يجني المعلم بعض الأموال من كتابة الأحجبة والتعازيم باعتباره رجلاً متعلماً يملك قدرة غير طبيعية.

وللتلخيص نقول: إن التعليم المحلي يوفر مزيداً من الاعتبار أكثر ما يوفر أرباحاً، غير أن قيمته الفكرية والتربوية تكاد تكون معدومة.

4 ـ المكتبات:

يملك أبرز شيوخ الدين «المرابطين» بعض المكتبات التي تضم الكتب الكلاسيكية في مجالات الدين والفقه والنحو. إن أهم هذه الكتب هي تلك التي وضعها الإمام «برغونا» والإمام شريف والمعلم «اباتلوم» من غوري والمعلم حسن والمعلم أمينو والمعلم «تشيتيما» من زاندار.

وتضم هذه المجموعة ما بين 200 و400 كتاب فيها خلط كبير لا يسع الباحث أن يستخرج منها شيئاً مفيداً، لكن لنذكر أن مخطوطات حول تاريخ السودان والفتاش أعطيت للسيد دي «جيرونكور» من قبل يوسفي في «تيلابيري» وعلى العموم يبرز صغار رجال الدين (المرابطين) بكثير من الاعتزاز صناديق صغيرة تضم ما بين 5 و10 كتب.

(*) تدفع الصدقة والتبرك وذبح بقرة أو غيرها عندما يختم الطالب القرآن ذلك ما يقصده الكاتب.

هذه الكتب يتم شراؤها عادة في **«كانو»** مركز المكتبة العربية لدى تجار طرابلسيين وأحياناً يتم استنساخها من قبل رجال الدين أو طلبتهم أثناء أوقات فراغهم. كذلك يحمل الحجاج بعضاً من هذه الكتب عند عودتهم من مكة فالإمام **«برغونا»** مثلاً اشترى معظم كتبه من **«كانو»** واستنسخ الكتب الأخرى أثناء دراسته، وهناك كتاب واحد هو صحيح البخاري جلبه له من الشرق الحاج **«كولو»**.

في دائرة «ميامي» لا يملك رجال الدين التابعون «لجرما» سوى بعض مخطوطات القرآن تناقلها الأبناء عن الآباء والتلاميذ عن الشيوخ، أما التلاميذ المتقدمون في الدراسة فيقومون باستنساخ الكتب التي يستخدمونها بعد ذلك للتدريس.

5 ـ سياستنا المدرسية:

لما كانت العربية والفرنسية لغتين مجهولتين في هذه البلاد، وبما أن اللغات المحلية هي عبارة عن لهجات غير مكتوبة فقد تعرضنا لمدة طويلة للمتاعب بخصوص البلاغات الإدارية، لكن تم التوصل إلى تسوية هذه المشكلة من خلال تشكيل فريق من المحررين أو بالأحرى الناقلين للغات الهاوسا وجارما إلى اللغة العربية. فعندما يريد قائد النقطة العسكرية مراسلة إحدى القيادات المحلية يقوم هؤلاء الناقلون بترجمة الرسالة إلى اللغة المحلية وكتابتها بأحرف عربية، وفي المقابل يقرؤون الرسائل القادمة من الداخل على هذا المسؤول الذي يستطيع بهذا الأسلوب إدراك مضامينها. ونظراً لعيوب هذا الأسلوب فإنه يفضل العمل قدر الإمكان على تعميم استخدام لغتنا في هذه البلاد.

يبدو أن مستعمرة النيجر بعد أن مرت بمرحلة من الفوضى في القطاع المدرسي حتى عام 1920 بدأت تتوجه نحو مصير أفضل، فهي اليوم تعد

مدرستين جهويتين (زاندار ونيامي) و14 مدرسة قروية: طيلابيري ـ دوسو ـ بيرني ـ كوني ـ تاهوا ـ ماني سوروا ـ ماداوا التي يديرها معلم محلي، ومارادي وتسوا وماجاريا وتانوت التي يديرها ضباط من المركز.

فالمدرسة الجهوية بزاندار تضم معلماً أوروبياً يقوم بنفسه بمهمة الإشراف على التعليم ومعلماً مساعداً وخمسة مرشدين. أما المدرسة الجهوية في نيامي فتضم معلماً أوروبياً ومرشداً محلياً. وفي المجموع تعد البلاد متوسطاً يزيد عن 500 تلميذ. هذا الجهد مهما كان رائعاً لا يفي بالغرض وينبغي أن تحدد لهذه المستعمرة سياسة تعليمية تكون لها رؤيا واسعة، فبادىء ذي بدء ينبغي أن نلاحظ مبدئياً أنه من الصعب إن لم نقل من المستحيل إرسال معلمين أوروبيين أو حتى معلمين محليين من المستعمرات الأخرى إلى هذه البلاد؛ لذلك ينبغي العمل على استخدام معلمين من هذه المستعمرة. ولا شك أنه من المستحيل نظراً لوجود معلم أوروبي واحد لا يكون دائماً حاضراً في زاندار ولوجود قلة من المرشدين المحليين، إنه من المستحيل إعداد هؤلاء المعلمين للمستقبل. لذلك ينبغي في البداية استخدام معلمي المستعمرات المجاورة. لقد تم بهذا الأسلوب تكوين فريق المعلمين في السودان حيث لم يكن يعد منذ 15 عاماً سوى بعض المرشدين الذين يكادون يكونون أميين. وقد كان الأربعة معلمين السنغاليين المتخرجين في مدرسة «**سان لويس**» للمعلمين والذين أرسلوا عام 1906 يمثلون نواة لهذه المجموعة من 80 معلماً من أصل سوداني الذين ينشرون اليوم بنجاح تعليمنا في كل مدارس السودانيين.

لذلك ينبغي أن يوضع تحت تصرف هذه المستعمرة ستة معلمين يؤخذون من المستعمرات المجاورة: **السودان** (منطقة **غاو**)، **فولتا العليا** (المنطقة الشرقية)، **داهومي** (منطقة **الشمال**).

هؤلاء المعلمون الذين يتم توزيعهم بأفضل الطرق يستطيعون خلال السنوات القليلة التي يقضونها هنا تعليم وتكوين أفضل التلاميذ في المدارس

المحلية، ثم يوجهونهم بعد ذلك إلى مدرسة المعلمين في **غوري** حيث يكتمل تكوينهم التربوي. عند ذلك يتخرجون كمعلمين كمَّل ويلتحقون نهائياً بهذه المستعمرة حيث يكونون بدورهم نواة جديدة. ذلك ما حصل في المستعمرات الأخرى وذلك ما يحصل راهناً في **التوغو** حيث وضع أربعة معلمين **داهوميين** تحت تصرف مفوّض الحكومة. ولا نشك لحظة في أن هذه التجربة ستلقى نجاحاً لدى السكان «**الهوسا**» و«**الجارما**» و«**بربيري**» في هذه المستعمرة.

ويقتضي إجراء ثان بتزويد هذه المستعمرة في نهاية السنة الدراسية بطالب أو طالبين معلمين تخرجا من مدرسة **غوري** للمعلمين. ويفضل ـ طبعاً ـ يفضل أن يكونا من المتطوعين إذا ما أردنا ضمان وفائهما وتفانيهما في خدمتنا، ويحسن أن يحدد أجر إضافي حتى يلتزم بعض هؤلاء المتطوعين بالبقاء عامين أو ثلاثة أعوام في أراضي النيجر.

أخيراً هناك إجراء ينبغي التفكير فيه: ليس من المستحيل أن يوجد في مختلف المدارس المحلية التي يديرها صغار الضباط أو المرشدون بعض التلاميذ الجيدين القادرين على المشاركة في مناظرات الدخول إلى مدرسة المعلمين، لذلك يحسن بالمعلمين فرزهم ودفعهم إلى الإمام حتى يستطيعوا المشاركة في هذه المناظرات. ومن الواضح أنه ينبغي على المصححين أن يظهروا كثيراً من التفهم نظراً للوضع الخاص لهذه المستعمرة. عند ذلك يستطيع هؤلاء التلاميذ الالتحاق بمدرسة المعلمين **بغوري** طيلة ثلاث سنوات ليتخرجوا منها ويلتحقوا بالمستعمرة كمعلمين.

6 ـ لغة «طماشيق» في هذه الأراضي:

لا توجد لهجات بربرية في مناطق «**انقيقمي**» و«**مايني**» و«**سوروا**» و«**غوري**» ومن جهة ثانية لا يمكن اعتبار لهجات **التوبو** المستعملة في «**كاوار**» (**بيلما**) كلهجات منحدرة من البربرية.

في مناطق «ماداوا» و«طاهوا» و«زاندار» يتكلم طوارق «الكلوي» و«كلغراس» لغة ذات أصل بربري لكن عددهم الموجود واتصالاتهم الدائمة بالسكان المستقرين من **الهاوسا** جعلتهم يستخدمون **الهاوسا** كلغة تجارية ويتخلون عن تقاليد لهجتهم. وبذلك صارت **الهاوسا** مهيمنة واستطاعت دفع اللهجة البربرية نحو الشمال (منطقة **أغاداس**).

هذه الظاهرة في تراجع اللغة البربرية أمام **الهاوسا** في أواسط البلاد تلاحظ أيضاً غرباً في منطقة **نيامي** أمام لغة «**الجارما**». ففي هذه المنطقة يستقر البدو أو يبتعدون عن النهر باتجاه الشمال الشرقي، لكن نعتقد أن هذه اللغة ستبقى طويلاً كلغة لبعض الأسر الطوارقية المتمسكة بتقاليدها في البلاد.

في النهاية لا تسيطر اللهجات ذات الأصل البربري في مستعمرة النيجر إلا في دائرة **أغاداس** فهذه الدائرة يحتلها بالكامل سكان يتكلمون لهجة بربرية تعرف باسم: «**طماهاق الاهير**». هذه اللهجة تختلف نسبياً عن اللهجة البربرية المستعملة في **الهوقار** و**إيفوراس** و**أوليميدان**، لكن تجدر الملاحظة أن جميع الطوارق يفهمون كل هذه اللهجات.

لقد ترتب عن العلاقات التجارية التي تقوم بين القوافل ومناطق الجنوب أو منطقة طرابلس أن اضطرت بعض القبائل خاصة قبيلة **الكلوي** إلى استعمال لغتي **الهاوسا** و**العربية**، لكن استعمال هاتين اللغتين لا يعدو أن يكون إضافياً. فالطوارق يستعملون هاتين اللغتين مثلما يستعمل التجار والسيّاح الفرنسيون الإنجليزية أو الإيطالية أثناء تنقلهم في البلدان الأجنبية. ولا يبدو حالياً أن لهجة «**طماهاق الاهير**» تسجل حالياً تراجعاً أمام إحدى اللهجات التي يتكلمها السكان المحليون في المناطق المجاورة.

ثم إن الطوارقي لا يحب التحدث **بالهاوسا**، فقد لاحظ الرحالة أكثر من مرة أن الطوارق الذين يتحدثون **الهاوسا** يرفضون استعمالها عندما يكونون

مجتمعين فيما بينهم بالمناطق النائية أو عندما يتحدثون بحضور بدو لا يعرفونهم.

هناك فقط بعض القواد الذين يقبلون باستعمال **الهاوسا** أثناء التحادث مع مترجمينا لكنهم يفعلون ذلك عن كره.

انطلاقاً من هذه المعطيات يجوز الاعتقاد بأن مجال لهجة **طاماهاق** لن يلحقه النقصان.

تأثير الإسلام في الميدان الاجتماعي

1 ـ الطفـل :

لا يتضمن حمل الطفل طقوساً خاصة باستثناء التبرك بالمرابط أو الساحر. كذلك لا يجوز أبداً ضرب امرأة حامل حتى ولو ارتكبت غلطة كبيرة، هذا وتباشر عملية التوليد قابلة بدون حضور الزوج أو رجال آخرين. وأثناء الولادة الأولى تقضي التقاليد عند كثير من قبائل السود والطوارق بأن تغادر المرأة خيمة زوجها وتستقر عند أهلها، أما القابلة فتحصل على بعض الهدايا البسيطة كمقابل.

هذا وتقوم الأم بإرضاع وتربية الوليد طيلة ثلاث سنوات. وابتداء من هذه السن يدخل الطفل تحت وصاية الأب أما البنت فتبقى دائماً مرتبطة بالأم.

عندما لا تستطيع الأم إرضاع طفلها تتكفل إحدى الجارات بذلك وتقدم لها الهدايا الصغيرة ومبلغاً من المال يتراوح بين 20 و40 فرنكا.

عند الطوارق، لا ينظر بعين الرضى إلى الأم التي لا تغذي طفلها لكن يحدث عادة أن تستعين النساء اللاتي لا لبن عندهن بامرأة أخرى، غير أنه يتم دائماً اختيار المرضعة داخل الأسرة ومن بين الأقارب (الأخت إذا أمكن). ذلك

العمة أو الخالة في كونه لا يستطيع بعد ذلك أن يتزوج من أخوات الرضاع. وبما أن الزواج بين أبناء العمومة منتشر في منطقة «أبير» فإن مثل هذا النوع من الرضاع يسبب متاعب.

تمنع مضاجعة الزوج زوجته طيلة 40 يوماً بعد الولادة. عندما يبلغ الطفل سن الخامسة يبدأ في العمل سواء في الحقول أو في رعاية الماشية أو في المدن كمتدرب على الخياطة أو السكافة أو الحدادة، أما البنت الصغيرة فتساعد أمها في الأعمال المنزلية وفي مراقبة إخوتها الصغار.

وعندما يبلغ الطفل السابعة من العمر يبدأ في إفشاء السلام وفي الالتحاق بالمدرسة القرآنية.

2 ـ الختـان:

يعم الختان في البلاد لدى الوثنيين والمسلمين على السواء ويمارسه الطوارق ويسمونه في لغة «**طماشيق**» «**برار اغدام**»، ومن الواضح أن هذه العادة سابقة على الإسلام.

يجري ختان الطفل عندما يبلغ 7 أو 8 سنوات. لكن المرابطين يختنون أطفالهم عامين أو ثلاثة قبل ذلك، أما الذي يمارس عملية الختان فهو حلاق القرية. وتتم العملية ثلاث أو أربع مرات في العام يجمع خلالها أطفال بعض العائلات في الحي، وعلى الأطفال أن يتسلحوا بكثير من الشجاعة أثناء هذه العملية القاسية، فالذين يبكون منهم يفقدون الاعتبار ويتم تذكيرهم بذلك بعد مدة طويلة. وإذا كانت عملية الختان تنجح في غالب الأحيان فإن الحوادث غير مأمونة وتحصل هذه الحوادث بسبب عدم مراعاة قواعد النظافة.

يكون الختان عادة مناسبة لتنظيم أفراح تكون متواضعة لدى العائلات الفقيرة في القرى وكبيرة يتخللها الرقص واستخدام الطبول بل وحتى مسابقة الخيول عندما يكون الختان لطفل أحد القواد والمشاهير.

أما ختان البنات فتلك عادة غير معممة. فقبائل **الجارما والكورتاي والهاوسا** لا تعرفها مثلاً وكذلك الطوارق أيضاً. وعلى العكس من ذلك يعمل بهذا النوع من الختان في بعض قرى **بيربيري** وتتم هذه العملية بعد أيام قليلة من الولادة.

إن السكان المحليين يجدون صعوبة في إعطاء معنى للختان أمام المرابط فيعطونه تفسيراً إسلامياً لا قيمة له بما أن هذه العادة سابقة على ظهور الإسلام، ومن المحتمل أن يَرَى في ذلك هنا وهناك طقوساً لطور المراهقة أو البلوغ.

3 ـ التسـمية:

تقتضي العادة المنتشرة في بلاد السود ولدى طوارق «الآيير» بأن يعطى للطفل اسم له في اليوم السابع من ولادته. هذا الاسم الإسلامي يختاره الأب وأحياناً المرابط عندما يطلب منه ذلك على سبيل التبرك. ويقام بهذه المناسبة احتفال تذبح فيه شاة من الضأن أو الماعز.

في بلاد الطوارق حيث تلد المرأة ولادتها الأولى وأحياناً الولادات اللاحقة في بيت أبيها لا تتم تسمية الطفل إلا بعد وصول شاة الضأن التي يرسلها الزوج مرفقة بوصية حول اسم المولود.

ويبدو أن هناك عادة منتشرة في كامل هذه المنطقة من ضفاف نهر **النيجر** ولا تزال حيّة لدى السكان المسلمين: تتمثل هذه العادة في أن المرأة لا يجوز لها إطلاقاً التفوه باسم زوجها أو اسم والده. كذلك ينبغي على الزوج والزوجة عندما يكونان في مجلس عام أن يضعا المولود الجديد جانباً وأن يبديا عدم الاهتمام به، بل الأمر يصل إلى أبعد من ذلك حيث لا يمكن لإنسان أن يرى أحد هؤلاء السكان المحليين يخاطب ابنه أو بنته البكر على الملأ. وحتى عند وفاة هؤلاء الأبناء ينبغي للأبوين إظهار عدم الاكتراث أمام الملأ على أن يتركا العنان لعواطفهما عندما يخلوان في المنزل. كذلك تتخلى بعض النساء عن

أطفالهن إذا ما تعرضن لسخرية الرفيقات، وتتسبب هذه الممارسة فيما يخص الاحصاءات والاجراءات الإدارية في ارتكاب الأغلاط كل مرة، وعندما يطلب من امرأة اسم زوجها أو من أحد الوالدين اسم ابنه البكر يكون جوابه دائماً مغلوطاً ذلك لأنه لا يجوز في العلن التفوّه بالاسم الحقيقي.

4 ـ الـزواج :

يأتي الزواج مع سن البلوغ: من 12 إلى 13 سنة بالنسبة للبنات ومن 18 إلى 20 سنة بالنسبة للأولاد. لكن البنت في العائلات الغنية توعد للزواج عادة قبل هذه السن.

عادة يحدد الشاب بنفسه الاختيار في شيء من التخفي لكن في غالب الأحيان بعد اتفاق سرّي مع البنت، ثم يرسل بعد هذه الترتيبات والده أو عمه لالتقاء والد البنت، أما إذا كان بالغاً فإن هذا الشاب يسوي أموره مباشرة، فعندما يتم قبول طلبه يقدم للبنت المخطوبة مجموعة من الهدايا. وبعدما يحدد المهر من قبل الطرفين يتم تسليم قسم منه أمام الشهود وقبل الزواج. يسبق الزواج لدى معظم هذه القبائل بنوع من الخلوة (6 أيام) يقضيها الخطيبان مع الأصدقاء كل من جنسه.

وفي اليوم المحدد يجتمع أصدقاء الزوج ويتوجهون إلى دار العروس لنقلها إلى دارها الجديدة. وتأتي العروس راكبة حصاناً ولابسة خماراً ترافقها فرقة الطبول والمزامير بينما ترافق صديقات المخطوبة الزوج الذي يمشي راجلاً برفقة فرقة الطبول والمزامير، ثم يوضع الزوجان في غرفتين حيث تلبس العروس حليها وتتزين بالحناء والكحل. وعند الظهيرة يخرج العريس من غرفته ليشهد سباق الخيل الذي ينظم على شرفه. وفي المساء تتواصل الأفراح ويجري تنظيم الحفل الذي يتخذ صبغة دينية حيث يحضر المرابط لدى العروس برفقة

والدها أو وصيها، ويطلب منها هل تقبل ذلك الزوج، ويكون جوابها في حال الإيجاب بالصمت أو البكاء. أما في حالة السلب فتحتج بقوة لكن الأب في هذه الحالة يتجاوز رضى ابنته إذا كانت عذراء وفقاً للتقاليد التي تمنحه الحق في ذلك. بعد الحصول على الرضى يوضّح المرابط للوالدين واجبات العروسين. ومع حلول المساء ينظم عشاء كبير تذبح فيه بعض الحيوانات من بقر وضأن وماعز ودجاج، وتحضره العائلات والأصدقاء والمدعوون. وفيما تتواصل السهرة بين الطعام والرقص يخلو العروسان إلى بيت الزوجية. وعند الصباح تزورهما عجائز القرية للتحقق من أن الزوجة كانت عذراء. وبهذه المناسبة يقدم الزوج هدية لأم زوجته. وتجدر الملاحظة أن هذه الاحتفالات تتم مرة واحدة بمناسبة الزواج الأول للرجل، وعندما تكون الزوجة شابة عذراء، أما بعد ذلك فإن الزواج يكون أكثر بساطة.

5 ـ الدفن:

عندما تحدث الوفاة يوضع المتوفى أرضاً، رأسه إلى الجنوب وقدماه نحو الشمال، ويعصر بطنه حتى يخرج ما قد يوجد به. بعد ذلك تغسل رجلاه ثم يوضع على الأرض ويتم إبلاغ سكان القرية. بعد ذلك يتم غسل بدنه إلا أن يكون الموت بسبب مرض وبائي ثم يوضع في كفنه الذي يخاط على الفور. ويتم الدفن بعد ذلك مباشرة أي بعد ساعتين أو ثلاث ساعات من الوفاة إلا إذا حصلت هذه الأخيرة أثناء الليل. ويجري ذلك بحضور المرابط وسكان القرية حيث يقوم بعض تلاميذ المرابط بحمل الجثمان وبوضعه أمام القبر الذي قام رفاقهم بحفره. ويقف الإمام أمام الجثمان بينما يصطف الحاضرون وراءه ويؤدون صلاة الميت وقوفاً ويختمونها بعبارة «الله أكبر» أربع مرات، ثم ينزل الجثمان في حفرة القبر ويوضع على جنبه الأيمن بحيث يكون وجهه باتجاه مكة، ثم توضع فوقه قطع من الخشب وورق الشجر يتم تغطيتها بضفيرة

ويوارى بالتراب. . عادة ليس هناك ما يميّز قبر الميت؛ لذلك فإن أسرته لا تستطيع بعد فترة من الزمن أن تحدد مكانه. . لكن في المنطقة الغربية يتم تحديد القبر بعلامة شاهد يوضع من جهة الرأس عندما يكون الميت من الأعيان لدى قبيلة **صونغاي** أو من العشيرة لدى قبيلة **كورتاي**.

ليست هناك مدافن رسمية إلا في الأماكن التي نحتلها. ليس هناك حداد بالنسبة للزوج أما الزوجة فتحمل لباساً أبيض للحداد طيلة أربعة أشهر وعشرة أيام. إن ذلك يمثل قاعدة العدة الإسلامية التي ينبغي للمرأة مراعاتها قبل الزواج من جديد. هذه القاعدة التي لا يراعيها السود كثيراً تتم مراعاتها بدقة من قبل النساء **الطوارقيات** اللواتي يحملن لفافاً أبيض على رؤوسهن كعنوان على الحداد، ثم تغتسل بعد ذلك وتلبس الجديد وتتزين بالحلي لتبين حريتهن.

6 ـ المـرأة:

يتميّز وضع المرأة لدى **الهاوسا والبيربيري والطوارق** بتفوقه على وضع المرأة العربية. فهي تتمتع بحرية مطلقة في التنقل واللباس باستثناء حريمين أو ثلاث للسلاطين. فهذه المرأة تتمتع بالحرية أثناء العمل في الحقول مع زوجها وأطفالها وفي الكسب والملكية الخاصة وفي زيارة الصديقات والعائلة. . . الخ.

تتكفل الأم بمسؤولية الإرضاع وتربية الأطفال الصغار. ومع التقدم في السن يستقل الطفل عنها شيئاً فشيئاً، أما البنت فتبقى دائماً تحت رعايتها.

تعيش المرأة وحيدة في بيتها حيث تستقبل بانتظام زيارة زوجها إذا كان له زوجات أخرى. لكنها لا تحضر إقامة الشعائر الدينية على الأقل قبل أن تبلغ سنّاً ما، لكن ليس هناك ما يمنعها من حضور هذه الشعائر. وعلى العموم فإن ظروفها مريحة إلا إذا تقدمت بها السن أو بقيت معزولة تعيش على الكفاف.

إنها تتناول الطعام مع أبنائها بدون حضور زوجها. وقد أكد رجل الدين من غوري للنقيب **لاكوردار**(*) أن زوجته لم تتناول أمامه قطرة من الماء طيلة 32 سنة من الحياة الزوجية المشتركة.

كذلك فإن تعدد الزوجات يمارس في كل البلاد لكن على الرغم من ذلك فإن عدد الأسر التي بها زوجات متعددة غير مرتفع، ولا يتضمن عادة أكثر من زوجتين. ففي منطقة **غوري** ليس هناك سوى خمسة رجال لهم أربع زوجات أو أكثر: هم زعيما دائرتي **ماي ياكوديما ومامادوكلي**، وزعيم **بولو هواردو خابو**، **واثنان من رجال الدين ملام أباتيلوم وملام كانتاما**.

كذلك تعد ظاهرة العيش مع نساء بدون عقد زواج مؤسسة رسمية ومشروعة لكن ليس هناك سوى الزعماء وكبار الأعيان الذين يستطيعون ذلك.

أما الطلاق فهو ظاهرة طبيعية، فالسهولة التي يحل بها الزواج على حساب الأطفال مؤسفة حقاً. إن الإسلام المتسامح كثيراً في هذا المجال لم يحد من هذه التقاليد السيئة، كذلك يفاجأ المرء بتردد شكاوى الرجال من أن النساء يردن الأطفال حتى يحتفظن بحريتهن داخل الزواج وخارجه.

من الطبيعي في مثل هذه الظروف ـ على الرغم من زعم بعض الكتاب أن نظام تعدد الزوجات والطلاق يمثل مخرجاً ينظم سير المجتمعات المحلية ويضمن تفوقها على مجتمعاتنا ـ من الطبيعي إذن أن ينتشر الزنى في كل مكان. فباستثناء مجتمع **التوبو** حيث تحتفظ العلاقات الزوجية بشيء من الاحترام والرعاية، يمكن القول: إن الزوج يواجه في هذه البلاد كثيراً من المصاعب بسبب المرأة. ولا يمكن اعتبار الرجل مسؤولاً عن ذلك. أما البغاء فهو منتشر فالنساء البغيات من الوثنيات والمسلمات يكثرن في كل تجمع سكاني وخاصة

(*) النقيب لاكوردار ضابط فرنسي.

في الأسواق. ويمثل أفضل مسلمي المنطقة زبائنهن عادة. ونظراً لنمط عيشهن ولجرأتهن التي لا توجد لدى النساء الأخريات فإنهن يظهرن عادة في المسجد ويحصل التعرف عليهن من خلال تبرجهن ومشيتهن ونظراتهن وخاصة من خلال لون أسنانهن بسبب الإكثار من استعمال مادة الكولا والتبغ.

غير أن البغاء يتخذ أحياناً أبعاداً تفرز نوعاً من ردة الفعل. عند ذلك يأمر رئيس القرية النساء بالتزوج أو الطرد. وهكذا تسوى الأمور بسهولة، لكن من الواضح أنها ترجع إلى ما كانت عليه بعد أشهر قليلة. أما في المدينة فيقوم جماعة رجال الدين سواء بمبادرة منهم أو بإيعاز من السلاطين والقادة بحملات على البغاء فيشهرون بالبغيات وينادون بالرجوع إلى الفضيلة، ولضمان مزيد من الأمن والسلامة يعبئون الرأي العام من خلال التنبؤ بالكوارث: الأوبئة، الجفاف، موت الحيوانات... الخ. كعقاب إلهي للانحرافات العامة. فيستطيعون بذلك إثارة حركات جيدة قد تدوم بضعة أسابيع.

أما زواج الأوروبيين من النساء المحليات المسلمات فهو مقبول في كل مكان. إنه ناتج عن تقليد الطبائع السمحة للبلاد وعن العرف اللين والمتسامح أكثر مما هو ناتج عن ترخيص من الإسلام. غير أن جماعة المرابطين يظهرون هم أنفسهم شيئاً من المصالحة حيث يبررون هذا الزواج المشترك من وجهة نظرهم، إذ يصرحون أن البيض هم أهل كتاب وبما أنهم يملكون شيئاً من الوحي المنزل فهم يكادون يكونون مسلمين. فضلاً عن ذلك، فإنه نظراً للمعارف الإسلامية التي يملكها كل واحد من هؤلاء الأوروبيين يبدو هذا الأخير في نظر هؤلاء المسلمين الجاهلين وكأنه يملك معارف عميقة في علوم الدين والفقه الإسلامي.

تمتلك نساء البدو شيئاً من المعرفة فكثير منهن تعلمن في المدرسة القرآنية واحتفظن بعدة مقاطع قرآنية، والكثير منهن يعرفن الكتابة ولهن بعض المفاهيم من الأدب المقدس بل وحتى الأدب العلماني. وعلى العكس من ذلك فإن نساء

السود كلهن أميات باستثناء بعض بنات المرابطين اللاتي يعرفن القراءة وبعض المعارف.

في مجتمع **الطوارق** يماثل وضع المرأة أو يفوق وضع المرأة الأوروبية لكن ليس لذات الأسباب؛ ذلك أن الأسرة **الطوارقية** تختلف تماماً عن أسرتنا فالأب ليست له أهمية تذكر حيث إن المرأة هي الآمرة الناهية فيما يخص الأطفال بل وحتى الباقي، ذلك أن **الطوارق** لا يفعلون شيئاً دون موافقة المرأة.

من الناحية المبدئية رئيس العائلة هو الأب فهو الآمر في المحل الذي يعيش فيه أبناؤه ونساؤه وما تبعهم.

إذن فالمرأة عند **الطوارق** لها وضع خاص ولا مجال لوجود نظام تعدد الزوجات باعتباره يمثل انتقاصاً للمرأة، علماً بأن **الطوارقيات** أبيّات ومتمسكات بسيطرتهن ورأيهن مسموع لدى الرجال. ويمكن القول: إنهن هن اللاتي يصدرن الأوامر لأن أزواجهن يتخوفون كثيراً من إغضابهن. لذلك فالطوارقي رجل له عادة زوجة واحدة باستثناء القليل منهم لدى الطوارق **الكلوى** الذين لهم زوجتان. لكنْ هاتان الأخيرتان لا تعلمان بذلك حيث لا تقيمان أبداً في نفس المكان.

باستثناء واجب الوفاء الذي هو طبعاً متبادل بين الزوجين فإن كل الواجبات لدى **الطوارق** منوطة بالزوج. طبعاً إنه يجب على الزوجة أن تهتم بالبيت وتراقب الخدم وتحضر الطعام لكن الزوج يجب عليه أن يوفر لزوجته الخيمة والغذاء واللباس ويساعدها في كل ظروف الحياة ويساندها في كل خلافاتها مع الآخرين... الخ. وعلى الرغم من أن الزوج هو رئيس العائلة لكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً، لا يستطيع البيع والشراء والتصرف حتى في جماله دون الحصول على رأي زوجته بحيث ليس له في الواقع أي مظهر من مظاهر السلطة. وقد يصل الأمر بالزوجة أن تفارق زوجها وتتطلق منه عندما

مظاهر السلطة. وقد يصل الأمر بالزوجة أن تفارق زوجها وتتطلق منه عندما يحصل خلاف بينهما لكن ذلك نادر لأن الطوارقي لا يفعل إلا ما يرضي زوجته حتى فيما يخص الحرب.

وعلى الرغم من أنهم مسلمون فإن الطوارق لا يتبعون الشرع الإسلامي إلا في بعض الحالات، ففيما يخص الزنى لا يلجأون إلى المرابط لتسوية خلافاتهم فعندما يكون الزوج هو الزاني تفارقه زوجته بكل بساطة دون الإعلان عن الطلاق وتأخذ معها المهر والهدايا. لكنها تعفو أحياناً عن زوجها الذي يجتهد في تقديم الهدايا لها حتى تنسى غلطته. أما إذا خانت الزوجة زوجها فإن هذا الأخير يبحث عن غريمه ويبارزه، وإذا ما أراد الطلاق فإن زوجته ترد له المهر دون الهدايا مما يحدث أحياناً مواجهات بين القبائل.

7 ـ المسكن:

يتمثل نوع المسكن في الكوخ القديم على النمط السوداني الذي يشبه الخلية: قلة الهواء، وانعدام وسائل الراحة والنظافة، وارتفاع الحرارة، وضيق المدخل. في الواقع يمثل هذا الكوخ ملجأ أثناء موسم البرد والأمطار أما في المواسم الأخرى فالسكان يعيشون على الهواء.

هناك بعض القيادات والأعيان وجماعة المرابطين والأثرياء الذين لهم أكواخ واسعة تتوفر على بعض وسائل الراحة لكنها لا تحمل آثار التزيين.

في القرى الكبيرة تتوزع الأكواخ على أحياء مختلفة تمثل خلية اجتماعية مستقلة يقودها أحد الأعيان.

هذا ويملك الزعماء (سيركي) نوعاً من القصور (بيرني) التي تماثل القصور الملكية حيث تعيش الأسرة والخدم والحشم، وتطوّق هذه القصور بجدار عال وأهم هذه القصور توجد في **زاندار وغوري** وما بين **سوروا وتيسوا ومرادي وغويار وأغاداس وفاشي وبيلما**.

أما في البلاد الصحراوية فتمثل الخيمة النمط السكني المعتمد. وهي تصنع عادة محلياً من وبر الإبل وشعر الماعز وصوف الضأن وأحياناً من الجلود أو من القماش الغيني.

أما أثاث الأكواخ فهو بدائي. هناك من ناحية الحصيرة التي تستخدم كفراش وكوسيلة للجلوس وهناك من جهة ثانية بعض الأواني مثل الجرة وقِدْر الطين لطهي الكسكس والملاعق الخشبية والأكيسة الجلدية وبعض الأواني من الحديد التي بدأت تظهر هنا.

وفي الخلاصة يبدو أن للإسلام انعكسات طيبة في مجال الحياة المادية فمبادئه التي تدعو إلى النظافة قد حثت بلا شك السكان المحليين على التحلي بشيء من الأناقة التي تتماشى مع ميلهم إلى حب التفاخر. لذلك كثيراً ما يعثر المرء في القرى والأحياء الإسلامية على أكواخ نظيفة وعلى أثاث بسيط وجميل: فالأواني مرتبة على طول الجدار الداخلي والأرض مغطاة بالرمل الناعم الذي تتم غربلته قبل أيام الاحتفال. كذلك يتم في هذه البيوت استقبال الأواني ذات الصنع الأجنبي. ويبدو أن هناك توجهاً ونوعاً من البحث عن المتعة والرفاهية.

8 ـ التغذية:

تعتبر الذرة البيضاء المادة الأساسية في تغذية السكان المستقرين ويضيف البدو إليها اللبن والتمر. ويتكون الغذاء من دقيق الذرة الذي يتم خلطه بالماء أو اللبن. أما العشاء فهو كسكس دقيق الذرة مع بعض الدهون والمرق الحار يضاف إليه اللحم في المدن والأسواق التي تتوفر فيها اللحوم. كذلك يدخل السمك في تغذية السكان على ضفاف الأنهار والبحيرات.

أما في الجنوب فيستهلك القوم أنواعاً من الفاصوليا والفول السوداني والطماطم والبامية والذرة الصفراء والمنيهوت (نبات يخرج من جذوره دقيق

نشوي). يذبح الحيوان في كل مكان على طريقة الشريعة الإسلامية. ولا شك أن هذا العرف سابق على ظهور الإسلام.

لكن القوم في الأوساط الفقيرة لا يهتمون بذلك كثيراً، ويأكلون كل أنواع اللحوم بما في ذلك الجيفة. كذلك فإن لحوم الخنزير البري محبوبة في كل مكان غير أن جماعة المرابطين يظهرون اشمئزازهم من هذا اللحم الحرام.

أما الشراب العادي فهو الماء لكن استهلاك عصير الذرة المخمر منتشر ومعمم. وهناك أيام يكثر فيها السكان المحليون من مسلمين وغيرهم استهلاك هذا الشراب إلى درجة السكر الجماعي. كذلك ينتشر استعمال الشاي المنعنع والمجلوب من الصحراء في الأوساط الغنية والإسلامية. وتجدر الملاحظة أن الصحراويين وقبائل «**الغلبة**» يستهلكون كثيراً من المواد اللبنية التي تكاد تكون غذاءهم الأساسي.

يأكل الرجال عادة بمفردهم. هذه العادة تمثل القاعدة عند **الطوارق** لكن ينبغي أن نضيف بأن النساء لا يجوز لهن إظهار أفواههن.

9 ـ اللبـاس:

لا يتميز اللباس عند المسلمين والوثنيين. فبالنسبة للرجل يتألف اللباس من عباءة كبيرة (**البوبو السوداني**) وهي عبارة عن نسيج من القطن المحلي تتخللها بعض الأشكال والألوان والطراز، أما القيادات فيلبسون عباءات من «**كانو**» و«**سكوتو**» صنعت من أقمشة أوروبية، أما السروال المنسوج من القطن الأوروربي أو المحلي فهو فضفاض إلى درجة أن لابسه يجره أحياناً على الأرض لكن معظم السكان يلبسون سراويل من جلود الضأن والماعز الرخيصة التي تتماشى مع العمل اليومي. وقد يكون هذا الجلد أحياناً في شكل لحاف يغطي سوأة لابسه، أما الصدر فهو عادة عار، وأما الرأس فهو مكسو بلحاف أبيض غير أن جماعة المرابطين يلبسون في أيام الأعياد نوعاً من الشاشية الصفراء أو الحمراء التي يلفونها أحياناً بالعمامة. هذا وتحل البلغة (حذاء بدون كعب)

محل الصندال التقليدي عند الأعيان، وتمثل البلغة مع الشاشية والعباءة البيضاء لباس الحفلات الرسمية الإسلامية.

أما لباس المرأة فهو اللحاف السوداني التقليدي ذو اللون الأزرق والقماش المحلي أو الغيني.

كل هذه الألبسة لا تغسل إلا نادراً وتحمل حتى تذهب قطعاً قطعاً، ولا تظهر النساء على ما يبدو شيئاً من الدلال بل إن قذارتهن منفرة.

عند البلوغ يضع الرجال لدى الطوارق اللثام ويحملون قميصاً وسروالاً كبيراً وفي أيام الحفلات يلفون لثامهم بالعمامة.

أما النساء فلا يلثمن وجوههن، ويحملن على رؤوسهن قطعة من القماش الناعم تسمى «**ادليل**» ويغطين صدورهن بلباس فضفاض يسمى «**تلشان**». أما المرأة **الطورانية** فتضع حول حزامها جبة داخلية يغطيها لحاف كبير يسمى «**تيري**» ذلك هو لباسهم وقد يستغرب المرء من تلثم الرجل وتعري وجوه النساء.

10 ـ الطبقات والطبقات المغلقة (كاست):

تعد هذه المستعمرة بالنظر للتقسيمات الاجتماعية بلاداً انتقالية؛ ففي الغرب لا تزال منطقة «**جارماغندا**» المرتبطة عرقياً وجغرافياً بالسودان تحتوي على بعض الطبقات المغلقة التي فقدت بعضاً من تحجرها الذي كانت تتميز به في بلاد السودان. أما في الشرق فإن الطبقات المغلقة اندثرت في بلاد **الهاوسا وبيربيري** حيث لم تعد هناك سوى الطبقات الاجتماعية والجماعات الحرفية مما يجعل هيكل المجتمع قريباً هنا من التصور الإسلامي.

أ ـ يمثل الإسكافيون والسحرة الطبقتين الحرفيتين المغلقتين الوحيدتين في بلاد «**حارما**». وينتمي الإسكافيون إلى أسرة «**الكاوندا**» بينما ينتمي السحرة إلى أسرة «تيمتي»، أما الخزافون فهم أجانب من (**دوبلا أو غورما**)، وأما النساجون والحدادون والطبالون فهم من الأسرى الذين أجبروا على اختيار حرفة

محددة. إنهم يستطيعون اختيار إحدى هذه الحرف الثلاث أو المشاركة في الأعمال العادية لأسرى الطبقة المغلقة: أعمال زراعية رعى الماشية... إلخ. وبالتالي فهم لا يختلفون عن الأسرى الآخرين إلافي طبيعة عملهم.

ينتمي السحرة إلى قبيلتي **جارما وسونغاي**. إن وضعهم كأحرار تثبته واقعة عدم وجود أي مانع لزواجهم، لكن هذا الساحر لا يلقى اعتباراً كبيراً فهو مثل الطفيلي الذي يعيش على كاهل رئيس القبيلة أو المرابط. إنه رجل يثير المخاوف أحياناً لكنه لا يحظى بالنفوذ الذي يتمتع به أقرانه في المجتمعات المجاورة.

أما الجماعات الأخرى مثل أصحاب القوارب والصيادين... إلخ فلا يمثلون طبقات مغلقة بل نوعاً من الواداديات الحرفية.

ب ـ عند الخروج من دائرة ميامي للتوغل في بلاد الهاوسا نشهد تحولات في المؤسسات الاجتماعية واندثاراً للطبقات المغلقة.

على العموم تتكوّن مجتمعات **الهاوسا والبيربيري** من ثلاث طبقات اجتماعية:

1 ـ رؤساء القبائل (**ساركي**) والأعيان (**ساجيري**) والمرابطون (**معلم**). ويمثلون حكم القلة (**اوليغارشي**) المفتوح على المرابطية والمتمسك بامتيازاته ومداخيله واستغلاله للعامة.

2 ـ الشعب (**تلاقة**) الذي يضم العامة من الناس خاصة عمال الحقو وأصحاب القوافل والعبيد المحررين وسلالتهم: كل هؤلاء يستخدمون في الأعمال القاسية.

3 ـ الأسرى: بدأوا في الانقراض بفضل إجراءاتنا الرسميه الخاصة بتحريرهم لذلك فإنهم يندمجون في فئة العامة (**تلاقة**). إننا لا نكاد نعثر على أسرى لدى الهاوسا والبيربيري، وعلى العكس من ذلك نجد في البلاد الصحراوية حيث العبيد أشد عزلة وأشد خوفاً على مصيرهم وحيث لهم قليل

من التسهيلات في الاندماج بالمقارنة مع الجنوب، نجد أن هؤلاء العبيد لم ينتفعوا كثيراً بالتحرر الذي قدم لهم. أما عند الطوارق والتوبو فإن غالبية العبيد القدامى يعيشون بالقرب من أسيادهم السابقين، لكنهم يشعرون بحريتهم ولا يترددون عندما ينزل بهم أسيادهم عقوبات العهد الماضي في مغادرتهم وفي الالتحاق بمجموعة أخرى.

إن الإسلام لم يحد في هذه الأراضي من عدد الأسرى. فإذا كانت التوبة والنذور تؤدي من حين لآخر إلى إعتاق رجل فإن هذا الدين الجديد يشن حرباً صليبية دائمة على السكان الوثنيين المجاورين ويسبغ الشرعية على كل الحملات المسلحة وعلى كل مآسي غزو العبيد.

إن تحرير الأسرى هنا أو في مكان آخر هو بلا شك أمر جيّد في حد ذاته لكن عواقبه سيئة للغاية من وجهة النظر الاقتصادية. فالمتحررون رغم أنهم يعملون لحسابهم الخاص يعملون أقل من قبل بكثير. ها هم يتبخترون هنا برماحهم ولثامهم على الوجه مثل أسيادهم السابقين، وها هم هناك يرتدون العباءات الفضفاضة ويلعبون كالأطفال الصغار لعبة كبار القوم فضلاً عن كونهم لا يبدون إزاءنا امتناناً خاصة بسبب كرمنا عليهم، بل البعض منهم يذهب إلى حد اتهامنا بعدم السماح لهم باقتناء أسرى لحسابهم الخاص. وبالذات ينبغي الاعتقاد أنهم لم يكونوا في العهد السابق أشقياء بل كانوا يمثلون عالة على أسيادهم أكثر من أن يكونوا مصدراً للمداخيل. فالمثل الشعبي يقول في هذا الصدد: «من كانت عنده 20 امرأة يكون عادة غنياً أما من كان عنده 20 أسيراً فهو دائماً فقير».

هناك قليل من الأشراف في البلاد خاصة عند السود. وينبغي القول: إن هذه النوعية المحبوبة في الغرب هي غير ذلك هنا. فليس هناك سوى ثلاثة أشراف في زاندار وليس هناك شريف واحد في غوري، وهناك بعض الأشراف في بقاع مختلفة.

حساسية اللون غير موجودة طبعاً في بلاد السود وتكاد لا توجد في البلاد الصحراوية. فهنا نجد **طوارق وتبوا** لهم سمرة شديدة يقولون: إنهم أسياد قبيلة **بوزو**. كما هناك آخرون من كبار القيادات هم أقل بياضاً من قوم **بيلا وبوغادي**. وعلى الرغم من ذلك فلا نشك أن السحنة البيضاء لها هيبتها خاصة في البلاد التي يفتخر فيها الجميع بأنهم من أصل عربي.

تمثل الحرف نوعاً من التجمعات الحرفية يربط أعضاءها تضامن المصالح والوعي بالمساعدة الأخوية وشيء من الانضباط تجاه القائد أو (**السركي**) الذي يمثل الوسيط بين السلطة العليا والرفاق ويسوي الخلافات الصغيرة وبالتالي فهو يلعب دور الأمين في الأسواق العربية. وأهم هذه الحرف هي:

- القصابون (**فانا**).
- الحلاقون (**اسكي**).
- الحدادون (**ماكيرا**).
- تجار الجعة (**ديا**).
- الصباغون (**ماريمو**).
- النساجون (**طورنو**).
- الدباغون (**ماجيما**).

وتوجد في منطقة الآيير طبقات مغلقة (كاست) مختلفة:

1 ـ «**الايماجران**»: وهم النبلاء الذي يرتقون بأصولهم إلى مصادر مختلفة وإلى أحقاب ضاربة في الزمن. إن معظمهم من أصل بربري صميم.

2 ـ «**الأمراد**»: لقد انهزموا أثناء الحروب التي قامت بين **الطوارق** واضطروا إلى دفع الجزية **للإيماجران**. وهم أيضاً من أصل بربري.

3 ـ **الايطاغان**: هم أيضاً من أصل بربري ويرجعون في الأصل إلى الغزوات التي كان يشنها قوم **الاوليميدان في منطقة «كلايير». هؤلاء الإيطاغان** يوجدون فقط في قبائل **كلفروان وكلفادي**.

4 ـ **الإيراولان**: هم من قدامى الأسرى الذين أطلق سراحهم، فاستقروا بمنطقة الآيير واختلط دمهم بدم الطوارق. إنهم يعيشون اليوم عيشة الأسرى الأحرار ويرعون ماشية الإيماجران ويدلون القوافل.

5 ـ **الاينادان**: وهم حدادون ينحدرون عادة من **الهاوسا والبيربيري**.

6 ـ **الايكلان**: أسرى الغزوات أو الأسرى الذين جرى شراؤهم في بلاد السود يعيشون في دوار السيد ويتزوجون ويبقون دائماً في نفس العائلة. إنهم يقومون بالأعمال الداخلية للعائلة ـ وتقتضي الأعراف في منطقة **كلايير** أنه عندما يهرب واحد منهم من سيده **الطوارقي** ويلجأ إلى دوار مجاور ويقطع أذن طفل أو حصان لأحد **الطوارق** يصبح بذلك تابعاً لهذا **الطوارقي** الأخير، وكذلك الحال إذا قتل جمل أحد **الطوارق**.

يمثل **الإيماجران** قبائل تحمل ذات الاسم يعيش في كنفها قوم **الإيراولان والإينادان والإيكلان**.

أما قوم **الإيطاغان** فهم على العموم مختلطون مع بعض قبائل **الايماجران أو الايمراد**.

وأخيراً يمثل **الايراولان** أحياناً قبائل تحمل ذات الاسم.

عند قبائل **الكلايير** لا يختلط قوم **الايماجران** مع الطبقات المغلقة الأخرى. فهم لا يتصاهرون إلا فيما بينهم وبذلك يحتفظون بنقاوتهم العرقية. أما عند **الكلاوي** فهناك مصاهرة مع **الإيراولان والإيكلان** مما يفسر الاختلاط الكبير في النسب بين هذه القائل.

لقد اتبع قوم **الإيمراد** نفس التقاليد عند **الإيماجران** لكنهم كانوا يتصاهرون في الغالب مع **الإيطغان**، وعلى العكس من ذلك ليست هناك مصاهرة بين **الإيماجران والأميراد** لأن **الإيماجران** يعتبرون ذلك بمنزلة التساهل مع كرامتهم.

11 ـ السلطة:

تبرز البلاد على هذا المستوى كأنها في مرحلة انتقالية من المجتمعات السودانية إلى سلطنات إفريقيا الوسطى.

أ ـ ففي دائرة نيامي تمثل مملكة **جارماغندا** النمط الأساسي. السلطة العليا فيها بيد **الجارمكوي** الذي ينحدر دائماً من نفس العائلة أي من عائلة الجد الذي قاد تنقلات القبيلة إلى مستقرها الحالي، غير أن تكليف **الجارمكوي** ليس وراثياً مباشرة. فهو يرجع شرعياً وفقاً للتقاليد السودانية إلى أكبر الرجال سناً من بين أعضاء الأسرة الملكية بغضّ النظر عن روابطه الأسرية مع **الجارمكوي** الحاكم. وينتج عن ذلك أن الأمير الجديد يكون في غالب الأوقات شيخاً مسناً كما يترتب عنه صراع دائم على الوصول إلى سدة الحكم وفوضى وانقسامات لا حد لها.

يتمتع **الجارمكوي** في **دوسو** بالسلطة على كل **الجارمكوات** الثانويين وعلى رؤساء الدوائر والقرى الذين يتم اختيارهم بنفس الطريقة. كما له السلطة على رؤساء القبائل الخاضعة سواء المحلية منها أو المهاجرة، وتتمثل مصادر دخله في الأداءات العادية على المداخيل وفي الرسوم على المواريث وعلى السلع. كذلك الحال بالنسبة للأقوام الأخرى في الضفة الغربية لنهر النيجر لدى **السكورتي** ولدى مختلف مجموعات **الصونغاي** الذين يمثلون قاعدة دوائرنا الإدارية الحالية. لكن يتدخل هنا عامل إسلامي في طريقة تعيين الحاكم. فالقائد يجري تعيينه بواسطة تصويت عام للأعيان والمرابطين غير أن ذلك لا يمثل انتخاباً بالمعنى الحقيقي للكلمة بقدر ما يمثل تكريساً للعادات والتقاليد في اختيار هذا الحاكم. وبعد مراسيم الاحتفال بذلك يضع المرابط عمامة بيضاء على رأس الحاكم الجديد ويدعو له بالرفاهية في عهده مسبغاً عليه بذلك نوعاً من التكريس الديني.

أما الوثنيون الذين يشكلون تجمعات مستقلة في منطقتي **جارماغندا**

وانديورو فيتبعون تقريباً نفس الأسلوب في الاختيار باستثناء حضور المرابط.

ب ـ في المنطقة الواقعة بين **دالول** وتشاد تنقسم البلاد إلى قرابة العشر سلطنات صغيرة وفوضوية: **طاهوا وماداوا ومارادي وتساوا وزاندار وغوري**. تتمتع هذه السلطنات أحياناً ببعض الاستقلالية عندما يكون قائدها قوياً وتعترف أحياناً بالولاء لسلطان **بورنو** أو للسلاطين المجاورين. فمثلاً عندما استولى السلطان رابح في نهاية القرن التاسع عشر على امبراطورية **بورنو** ظهرت فصائله في إقليم **كومادوغو** حيث تم تنصيب بعض أتباعه، لكن ظهورنا على الساحة منعهم من مواصلة المهمة.

كانت السلطة السياسية دائماً هشة، قبل وصولنا، في بلاد تسيطر عليها الفوضى الكاملة. وفي الواقع لا يحظى بالطاعة إلا الحاكم الذي كانت له الوسائل اللازمة لفرضها.

يضم بلاط السلطان كبار الوجهاء ورئيس الحرب **(كاورا)** والمشرف على الأموال والمسؤول عن التموين والحاجب والمرابط الكبير وكبير الخصيان والمستشارين. وتعتبر هذه المهام وراثية في ذات الأسرة ما رضي عليها السلطان.

تنقسم البلاد إلى محافظات ودوائر وقرى يكون على رأس كل واحدة منها القائد أو السركي الذي يمارس جانباً من السلطة المطلقة للسلطان. ولكبار السركي والسلاطين وقادة المحافظات مجالس كبيرة تضم قائد الحرب **(كاورا)** ومستشار اليمين **(دوربي)** ومستشار اليسار **(ياكادا)** والإمام والخصي **(غالادينا)** وأخت الحاكم **(ماغاجياهوا)** وحفيدته أو زوجته الأولى **(أهيا)**.

وخارج هذا المجلس الرسمي يحتل المرابطون النافذون مكانة كبيرة في الحياة السياسية بالبلاد.

غير أن التقاليد الإسلامية الخاصة بانتقال السلطة غير متبعة هنا، فالابن

البكر هو الذي يرث الحكم عن أبيه، لكن يحدث أحياناً أن يرث الأخ الأصغر الحكم عندما يكون معروفاً ومتمرساً بشؤون الحكم.

تنقسم الضرائب إلى قسمين: ضرائب تقليدية وضرائب دينية ويمكن تحديدها كما يلي:

- **الكوردي نكاسا** وهي ضريبة على الأرض تمثل 0,6% يجنيها رئيس القرية.
- العشر أو **سوري** وهي الضريبة الرسمية التي يجنيها **الساركي** من الحبوب بمعدل ربطة من كل 20 ربطة من سنابل الذرة المحصودة.
- الزكاة التي يدفعها الملاك عن القمح والأرز والمواشي بنسبة واحد من عشرين من دخلهم إلى المرابط والمؤسسات الخيرية.

لكن ضريبة **الكوردي نكاسا** اندثرت تماماً. أما الضريبتان المتبقيتان وذاتا الأصل الإسلامي فتحتفظان بوجودهما بفضل قبول السكان لهما وتواطؤ القيادات والمرابطين الذين يستغلون ذلك.

ج ـ عند **الطوارق** يعين رئيس القبيلة من قبل شيوخ الخيام والمحلات، وعند موته يتم اختيار خليفته من بين أبناء أخته (**تيغيزان**). لكن حقوق وواجبات رؤساء وأعضاء القبيلة غير محددة. ولا يبدو أن أعضاء القبيلة كانت لهم التزامات كبيرة تجاه رؤسائها الذين يتدخلون في النقاشات والخلافات ويحظون بالاعتبار بقدر ما يكونون كرماء.

12 ـ المجال الاقتصادي:

لا يبدو أن الإسلام يمارس نفوذاً في المجال الزراعي. وكل ما نلاحظه أنه ساهم في استصلاح الواحات الصحراوية (**آيير وفاشي وكاورا**) بتقديم اليد العاملة الرخيصة والطيعة إلى الأسياد من **الطوارق والتوبو** البيض والمهجنين بالدم الأبيض غير القادرين على التفرغ للأعمال الزراعية. والحق يقال: إن

البدو سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين كانوا لأجل هذا يستولون دائماً على الأسرى لدى السود. لذلك لا يمثل الجهاد هنا سوى ذريعة.

بنفس الأسلوب يمكن القول: إن الإسلام ساهم في استغلال سبخات **بيلما وفاشي وتغيدا**. لكن لا نرى أثراً لمساهمة مسلمي الشمال في استيراد أساليب جديدة للاستغلال أو في تطوير الأساليب القديمة. ولعل صناعة الجلود هي الحرفة الوحيدة التي حظيت ببعض التطويرات المجلوبة من الشمال.

لا شك أن العنصر الإسلامي أظهر كل مهارته في الميدان التجاري. فكل أدوات التجارة بالمفرق وبالجملة في كل البلاد الواقعة بين النيجر وتشاد بل وحتى في كل **الداهومي**(*) كانت بأيدي المسلمين. هؤلاء المسلمون الذين يسمون «**غامباري**» ينحدرون أساساً من أصل قبائل **الهاوسا**. وبفضل دينهم الذي يوفر لهم التعاطف أينما يحلون فإنهم ينتشرون في كل القرى الإسلامية والوثنية ويوجدون ممثليات لهم في شكل مستعمرات صغيرة. إنهم يشترون المواشي والسكوك والمحاصيل الزراعية، ويبيعون الأقمشة والسكر والمواد المنزلية التي يجلبونها من الأسواق الإنجليزية الكبيرة في الجنوب.

في مجال التجارة الصحراوية ينبغي أن نلاحظ أيضاً نوعاً من تأثير الفقه والنظم الإسلامية. فالقوافل التي تقطع الصحراء من أولها إلى آخرها أو التي تنتقل بين واحة وأخرى تشبه إلى حد كبير السفينة التجارية المشحونة ببضائع لذوي مصالح مختلفة. فهناك المصالح الخاصة وهناك المصالح المشتركة وهناك المصالح الجماعية. وغالباً ما يرسل الأسياد عبيدهم أو أسراهم مع هذه القوافل ويشركونهم شخصياً في الأرباح. وهناك أخيراً مصالح في وصول القافلة سالمة إلى مقصدها مما يتطلب تبادل وجهات النظر والعقود والصفقات بين مزودي القوافل بخصوص اختيار الدليل وأجرته، والتفاهم مع الحراس الذين

(*) **الداهومي**: بنين حالياً.

يحمون القوافل مع الغزاة. . . إلخ. إن فقه الإسلام وتقاليده تحدّد كل هذه الصفقات.

لقد حملت هذه العمليات التجارية التي تغطي مجالات واسعة والتي تترتب عليها مخاطر جمة حملت مزودي القوافل على تكوين نوع من الشركات التي تقدم نجدة مشتركة. إن الجميع يعملون لحسابهم الخاص سواء كانوا أفراداً أو جماعات أو شركات لكن ينبغي توفير ضمان مشترك ضد المخاطر والمتاعب. غير أن هذا التعاون وهذه المساعدات المشتركة لا تشمل فقط البضائع والعمليات التجارية وإنما أيضاً الجِمال التي يستخدمها هؤلاء التجار المهرة. ذلك أن معظم هذه الجِمال ليست ملكاً لهم وإنما هي مؤجرة من قبل البدو الصحراويين.

13 ـ العلاقات بين الإسلام والوثنية:

هنا كما في أي مكان آخر يعيش الإسلام والوثنية في جوار حسن داخل الشعوب والقرى والقلوب. فنرى مثلاً عند الصحراويين وخاصة السود انسجاماً بين العادات الوثنية القديمة التي يحرمها القرآن وبين المؤسسات الإسلامية. من ذلك مثلاً: مؤسسة «**تانا**» المنتشرة في كل مكان على الرغم من إنكار الأوساط الإسلامية لذلك، كذلك يتردد ذكر ذلك التقليد عند **التوبو** الذي يقضي عند ميلاد الطفل بالدعوة له أن يكون سارقاً ماهراً. إنه تدخل مفاجىء للمرابط. فحتى هذه الأزمنة الأخيرة كان الشاب من **التوبو** لا يجوز له الزواج إلا بعد أن يسرق خمس بقرات.

تأثير الإسلام في المجال القضائي

لا مجال هنا للقيام بوصف عادات وأعراف شعوب المستعمرة. لذلك سنكتفي بالتعرض للبعض من النظم القضائية الأساسية لهذه الشعوب لنؤكد من خلال أمثلة ومن خلال التقاليد الاختلافات التي تبرز في هذه المجتمعات بين عقيدتهم الإسلامية التي تبقى نظرية في الغالب وبين ممارساتها العرقية.

وفيما يخص المجتمع **الطوارقي (الآيير وطاهوا)** يمكن الرجوع إلى كتاب الملازم **جان** «طوارق الجنوب الشرقي: **الآيير**».

1 ـ الأسـرة:

تقوم المجتمعات السوداء: «**الهاوسا وجارما وبيربيري**» على التنظيم **الباترياركي**(*) للأسرة التي تمثل القرية امتداداً لها. إن سلطة الجد مطلقة في هذا المجال. والنساء اللاتي يدخلن إلى الأسرة من خلال الزواج يخرجن منها بعد فترة الحداد إذا لم يكن لهن أطفال من زوجهن المتوفى أمّا إذا كان العكس فإنهن يبقين إلى أن يتزوجن من جديد، لكنهن لا يتمتعن بحقوق الميراث في أية حال من الأحوال.

(*) بمعنى الأبوي.

يبدو أن السلطة الأبوية لدى قبائل **الصونغاي** تفقد من سيطرتها حيث يبرز عند الشباب توجه نحو التحرر. أما في باقي الأماكن فإن هذه السلطة ما تزال مطلقة على غرار سلطة رئيس العشيرة التي تأتي مباشرة بعد سلطة أرباب الأسر. من ذلك مثلاً الاعتراف لرب الأسرة بحق بيع الأطفال إذا حدثت مجاعة. لقد أدخلنا تنظيمات على هذه الأساليب في المعاملات لكن هذا المبدأ لم ينمح من التقاليد.

عند المسلمين يرث الابن الأكبر سلطة وحقوق الأب.

وفي إقليم الآيير تعيش الأسرة تحت النظام البطريركي وتتجمع داخل الدوار. فهناك رب الأسرة الذي هو أيضاً رئيس الدوار الذي يخلفه ابنه البكر إذا مات. ويعيش إلى جانب رئيس الأسرة إخوته وزوجاتهم وكل أطفالهم وكذلك أمه إذا ترملت. أما أخواته فيعشن مع زوجهن في الدوار لكن إذا مات هذا الأخير يلتحقن بدوار الأسرة.

أما الأطفال فيتبعون دائماً أمهم ويلتحقون بقبيلتها لذلك فإن الانتساب إلى العائلة يتم من خلال الأم، فالطفل ينتمي دائماً إلى قبيلة أمه وليس إلى قبيلة أبيه ويعتبر **الطوارق** أن هذا الأسلوب يتضمن أقل الأخطاء.

في المجتمعات السوداء لا يعترف إلا بالانتساب الشرعي. وفي كل الحالات يترك الأطفال المولدون خارج الزواج إلا إذا لم ينجب الأب أولاداً من زوجاته الشرعيات. هذا ويشعر المسلمون تجاه أولادهم غير الشرعيين بعار لا يشعر به الأطفال أنفسهم.

أما التبني فهو متواتر. ويتم عادة بحضور أهل القرية والمرابط. وما دام الأب المتبني بقي حياً فإن الطفل الذي تبناه يعتبر كأحد أبنائه، وتجري عليه نفس الحقوق والواجبات. وإذا مات هذا الأب يتعرض الطفل لمطالب أبويه الحقيقيين ولا يحصل إلا على نصيب ضئيل من الميراث، لذلك فإن التبني ليست له حسب هذه الأعراف سوى نتائج مؤقتة.

في المجتمعات **الطوارقية** هناك أنواع مختلفة من النسب. فالعرف الذي يتبع القرآن هنا يميّز بين النسب الشرعي والنسب غير الشرعي لكنه لا يميز بين النسب الطبيعي وبين النسب المترتب عن الزنى أو عن العلاقات الأسرية المحرمة. وعلى العموم فإن الأطفال اللقطاء قليلون جداً عند **الطوارق** لأن النساء **الطوارقيات** اللاتي يعتبرن الطفل الطبيعي عاراً يقمن عادة بالإجهاض بل وحتى بقتل الأطفال اللقطاء. وفي كل الأحوال فإن الأب لا يعترف بمثل هؤلاء الأطفال. وإذا كانت الأم هي التي تحتفظ بهم وتصرف عليهم من أموالها فإن هؤلاء الأطفال ينظر إليهم دائماً نظرة سيئة للغاية. من ذلك مثلاً: إن كلمة «**انيبو**» بمعنى لقيط تعد من أكبر الإهانات عند **الطوارق**.

أما الأطفال الشرعيون فيعيشون طبعاً تحت رعاية الأبوين لكن عندما يستغني الطفل عن رعاية النساء يوكل به غالباً إلى خاله الذي يهتم به كثيراً ويشرف على تربيته ويقدم له الهدايا... إلخ. وإذا حدث خلاف بين الأبوين يتبع الأطفال الصغار دائماً أمهم. أما الذين يقدرون منهم على إبداء رأيهم فلهم انحيار بين البقاء مع الأب أو اتباع الأم حيث تذهب، وفي هذه الحالة الأخيرة لا يجوز للأب على الإطلاق أن يطالب به، وبذلك نرى أن الأسرة الطوارقية تختلف تماماً عن أسرتنا: حقوق الأبوين على الأطفال ضعيفة، خاصة حقوق الأب بالمقارنة مع حقوق الأم.

ظاهرة التبني موجودة في إقليم **الآيير** لكن ليس بنفس التواتر كما في فرنسا مثلاً. ذلك أن **الطوارقي** يستطيع تبني طفل ليس منه لكنه لا يستطيع أن يفعل ذلك إلا إذا كان له نسب بهذا الطفل. فهو لا يستطيع تبني طفل أجنبي عنه. أما صيغ التبني فلا تنظمها الأعراف. فعندما توافق أسرة الطفل على التبني يحمله الأب المتبني إلى داره. وابتداء من هذه اللحظة يعامل الطفل كابن شرعي وتصبح له نفس الحقوق.

يميز العرف **الطوارقي** بين نوعين من الوصاية:

1 ـ وصاية الأبوين.

2 ـ وصاية أسرة الأقارب.

في هذه الحالة تتمتع أسرة الأم بالأولوية.

1 ـ وصاية الأبوين:

أ ـ في حال موت الأب تتكفل الأم بالوصاية.

ب ـ في حال موت الأم، يستطيع الأب أن يقوم بالوصاية على أطفاله لكن ذلك ليس بقاعدة عامة، ففي كل الأحوال يفقد الأب حقوق الوصاية عندما يتزوج من جديد.

2 ـ وصاية أسرة الأقارب:

أ ـ تموت الأم ويبقى الأب على قيد الحياة: في حال عدم حضانة الأب لأطفاله وهي القاعدة الغالبة يعهد بالأطفال إلى أسرة الأم: يعهد بهم إلى الأخت إذا كان الأطفال صغاراً وإلى أخ الأم إذا كانوا قادرين على الاستغناء عن المرأة، وفي غياب الخال والخالة يتكفل بالوصاية المقربون في الأسرة.

ب ـ إذا توفي الأب ثم لحقته الأم توكل الوصاية إلى أسرة الأم كما في الحالة السابقة.

ج ـ إذا لم يكن للأم مقربون (أخت أو أخ، أم أو أب) يعهد بالأطفال إلى أسرة الأب المتوفى لكن إذا لم يكن للأب أو للأم مقربون فإن الوصاية تعهد إلى أسرة الأم، غير أنه لا وجود للوصاية بالوصية أو للوصاية المحددة زمانياً عند الطوارق في إقليم الآيير.

أما واجبات الوصي فهي التالية: ينبغي له رعاية الأطفال وتربيتهم وتوفير معيشتهم. كما ينبغي له الحفاظ على ملك الأطفال وعدم تبديده وإذا ما فعل

ذلك وعلم به الأهل الآخرون فبإمكانهم حمله على رده وتجريده من حق الاحتفاظ بالأطفال وبأملاكهم. وإذا كان الوصي فقيراً يجوز له التصرف في مرابيح مداخيل أملاك هؤلاء الأطفال مثل لبن المواشي وتأجير الجِمال للقوافل ومداخيل بيع الملح. . . إلخ.

عندما يبلغون سنة 17 أو 18 سنة ويبدؤون في حمل اللثام يتم في إقليم الآيير تسريح الأطفال، ويسلم لهم الوصي الأملاك التي ورثوها، أما النساء فلا يتم تسريحهن إلا عند الزواج.

2 ـ الـزواج:

يتخذ الزواج في كل المجتمعات السوداء شكلين: الزواج الشرعي والمعاشرة المشروعة من دون زواج. ويؤول مبدأ الزواج من أربع نساء بأساليب مختلفة، فقبائل **الماوري** في منطقة «**دوغنطشي**» تقول: إنه يعني الأربع نساء مسلمات لكن يجوز الزواج من عدد النساء الوثنيات بقدر الرغبة في ذلك. لذلك فإن رؤساء القبائل يتزوجون شرعياً ما بين 6 و8 نساء، أما قبائل **جارما** فيكتفون بثلاث نساء ولا يعرف الداعي إلى ذلك، أما **الهاوسا والبيربيري والمونزون** فيتزوجون بواحدة.

أما بشأن المعاشرة المشروعة بدون زواج فيمكن اختيار العدد المرغوب فيه من النساء. هذا ويتمتع أطفال نساء المعاشرة بنفس حقوق الميراث والحقوق الأخرى التي يتمتع بها أطفال الزوجات الشرعيات.

وفي قبائل **الطوارق** يتواتر الزواج من نساء قبيلة «**أمراد**»، ويسمى الأطفال في هذه الحالة: «**أراقافاتن**» إنهم يعيشون طلقاء لكنهم لا يصبحون مثل «**الأماجران**» إلا بعد مرور جيل.

مهما كان الوضع الشرعي ومهما كانت سن الولد أو البنت فلا بد من رضى الأب، وبالنسبة للبنات فإن رضى الأم يبقى ضرورياً.

يحرم الزواج بسبب روابط الدم المباشرة لكن الابن الشرعي يجوز له الزواج من الأخت غير الشرعية من نفس الأب وكذلك العكس. وبذلك فإن القرابة الطبيعية لا تمثل مانعاً للزواج، والأب ذاته يستطيع أن يتزوج من ابنته الطبيعية، وعلى العكس من ذلك تراعى من الناحية المبدئية قرابة الرضاع حتى ولو وجدت استثناءات لهذه القاعدة عندما تتم بدون علم المرابط.

كذلك يحرم الزواج بين الحمو وحماته وبين أطفال المتصاهرين، لكنه يبقى مؤقتاً بين الصهرين. وفي **ماغاريا** يجوز استثنائياً زواج رئيس القبيلة من الأختين.

لا يعد الفارق الديني مانعاً للزواج، فغالباً ما تتزوج نساء البيربيري المسلمات من الرماة الوثنيين لكن هذه الحالة تعتبر خاصة لأن أهل هذه البلاد يرون أن الناس الذين هم في خدمة الأوروبيين يتمتعون بحريات لا تمنح للآخرين. وعلى العموم تقضي القاعدة العامة بألا تتزوج مسلمة إلا من مسلم.

يراعى عادة الحمل والإرضاع كمانعين للزواج أما الخطوبة فلا تتم قبل أن يبدأ الطفل في حمل السروال أي ما بين 13 و15 سنة. أما البنت فتخطب وهي في سن مبكرة. وتتمثل الخطوبة في تفاوض الأهل حول المهر الذي يدفعه الشاب الخطيب لأسرة البنت المخطوبة، وتكرس بهدايا لا تلزم الطرفين ولا تسترد عند انقطاع المفاوضات. هذا وتقدم الهدايا على الخصوص في الأعياد الدينية خاصة في رمضان.

يراعى بدقة مبدأ المهر، وتكون قيمته دانية (من 5 إلى 10 فرنكات) عند القوم الفقراء بينما تبلغ لدى الأثرياء مائة فرنك أو 3 أو 4 رؤوس من الماشية. هذا ويحضر المرابط دائماً مراسيم الزواج ويطلب من الحاضرين إذا كان هناك مانع خفي لعقد القران وهو أمر قد يحدث أحياناً. . .

كذلك يكثر الطلاق الذي يبلغ نسبة 50%. ويصدر الطلاق على السواء

من النساء ومن الرجال، وإذا حدث خلاف حول اقتسام الأمتعة يتم اللجوء إلى وساطة المرابط المجاور، غير أن مدة الانتظار لا تراعيها المرأة المطلقة والمترملة، حيث تتزوجان عندما تسنح الفرصة دون مراعاة أي اعتبار. وعلى العموم فإن مصير المرأة المتزوجة غير بائس. فوضعيتها تفوق عملياً وضعها الشرعي، ومظاهر العطف بين الزوجين نادرة جداً، ثم إن الرجل الذي يظهر تعلقاً بامرأته يصبح مثاراً للسخرية.

في المجتمع **الطوارقي** تختلف التقاليد على نحو ظاهر، فالرجل يمكنه أن تكون له أربع زوجات شرعيات وعدد غير محدود من العشيرات، لكن من الناحية العملية يرى **الطوارق** أن امرأة واحدة تكفي. لذلك من النادر أن تكون عندهم عشيرات. وهم يكتفون بخيانة زوجاتهم مع نساء الحي غير أن حياة البدو وتنقلاتهم الكثيرة تصفح عن هذه التجاوزات. توجد الخطوبة في إقليم **الآيير** وهي نوع من الزواج قبل موعده، فليس من النادر تزويج أطفال في سن 12 أو 14 سنة، وفي أثناء الخطوبة تقام نفس الاحتفالات التي يشهدها الزواج وتسلم أسرة الزوج المهر بالكامل لأسرة الفتاة المخطوبة، أما الزوجان فيعيشان مفترقين كأن شيئاً لم يحدث، وبعد عامين أو ثلاثة يبدآن الحياة الجماعية إذا لم يغيرا موقفهما، أما إذا تراجع أحدهما فإنهما يسترجعان حريتهما بدون إجراءات أخرى سوى إعادة المهر من قبل أسرة المخطوبة.

في الواقع إن هذه الخطوبة الطويلة المدى نادرة، ذلك أن **الطوارق** أكثر تسرعاً من الناحية العملية. وعلى العموم تجري الأمور على النحو التالي:

عندما يرغب الشاب في فتاة يتوجه أبوه في زيارة لوالدها وتبدأ فوراً المحادثات الجدية حول تحديد المهر، لذلك ينبغي موافقة الأبوين بذلك كما ينبغي مبدئياً قبول الخطيبين. لكن من الناحية العملية يمكن للخطيبين الاستغناء عن موافقة الوالدين غير أن ذلك يلحق ضرراً بالاحتفالات وبسمعة الخطيبين.

ومهما يكن من أمر، لنفرض حصول موافقة جميع الأطراف حول المهر

وموعد الزواج، في هذا الموعد فإنه يؤتى باثنين من المرابطين أحدهما يمثل الزوجة والآخر يمثل الزوج، عند ذلك يقرأ المرابط ممثل الزوج الفاتحة بحضور الأبوين وكل الرجال في القرية بينما تستمع النساء إلى ذلك من بعيد وبينما تبقى الزوجة مع صديقاتها في البيت ويبقى الزوج مع أصدقائه في بيت آخر، ثم يدافع المرابط الثاني عن المصالح القضائية للزوجة ويوافق الوالدان، ثم يطلب من الحاضرين موافقتهم التي تبقى شكلية في النهاية.

بعد هذه الإجراءات لا تبقى سوى الجوانب الممتعة لأن الزواج عند الطوارق هو فرصة للفرح والغبطة.

في بلاد **الطوارق** يمنع ارتكاب المحارم وباستثناء ذلك يمكن لجميع أعضاء العائلة من أبناء العمومة وأبناء الخال... إلخ التزواج فيما بينهم بدون حائل.

لكن الرجل لا يجوز له الجمع بين الأختين غير أنه يستطيع الزواج من أخت زوجته إذا ماتت هذه الأخيرة شريطة أن تكون هذه الأخت أصغر سناً من زوجته.

أما الطلاق عند **الطوارق** فهو متواتر، ويتم الإعلان عنه بطريقة بسيطة وتتمثل أسباب الطلاق زيادة عن الزنى في اختلاف المزاج، وقلة اهتمام الزوج وعدم مراعاته لواجباته، وأحياناً لمسائل تتعلق بالمصالح الخاصة. وفي الغالب يتم الطلاق بالتراضي دون اللجوء إلى قضاء المرابط، أما في حال حدوث الزنى فإن الطلاق يصدر ضد الجاني وتسوى مسألة المهر تلقائياً. أما في حال وجود خلاف بين الزوجين فهناك وجهان للمسألة: إذا أرادت المرأة مفارقة زوجها يجب عليها أن ترجع له المهر وتأخذ معها أمتعتها والهدايا التي حصلت عليها منه ثم تلتحق بقبيلتها. أما إذا طلّق الرجل زوجته فإن هذه الأخيرة تلتحق بقبيلتها محملة بأمتعتها الخاصة ومحتفظة بالمهر.

ملحقات

ملحق رقم (1)

اتفاقية نيامي (20 من يونيو 1909)[1]

توجه القائد العسكري لأراضي الواحات إلى نيامي للتحادث مع القائد العسكري لأراضي النيجر وذلك عقب حصول اتفاق الحاكمين العامين، فترتبت عن هذه المحادثات المقترحات التالية التي رفعت إلى السلطات العليا للمصادقة عليها :

1 ـ رسم قسم من الحدود.

2 ـ قبائل أو عشائر تابعة لإحدى المستعمرتين.

3 ـ قواعد الانتجاع.

(1) في ربيع 1909 بدا من الضروري في نظر القائدين العسكريين للواحات الصحراوية ولأراضي النيجر رسم هذه الأراضي بدقة وتقسيم القبائل في هذه الأراضي التابعة لسلطتهما بين الجزائر وإفريقيا الغربية الفرنسية. فانتقل إلى السودان العقيد لبيرين القائد العسكري لأراضي الواحات لتسوية هذه المسألة المهمّة، وتحادث في هذا الشأن في نيامي مع المقدّم فينيل القائد العسكري لأراضي النيجر. وبعد اتفاق جرى بينهما صاغ هذان الضابطان يوم 20 من يونيو 1909 اتفاقية نيامي التي تهدف إلى وضع حد لمختلف المشاكل التي برزت بين الإقليمين، وبعد ذلك بقليل أُدخلت عليها تعديلات خاصة بالفصل بين مناطق النفوذ لكل من الجزائر وإفريقيا الغربية الفرنسية، مما ترتب عنه محادثات جديدة بين القائدين العسكريين. ونحن هنا نورد نص هذه الاتفاقية بعد تعديلها من قبل الحاكمين العامين.

1 ـ رسم قسم من الحدود:

بما أن البلاد التي تجتازها الحدود الناتجة عن اتفاق 7 من يونيو 1905 هي بلاد معترف بها، مما يسهل رسم هذا الخط بصورة أفضل وضبط حدوده بدقة وفقاً للفقرة أدناه من هذا الاتفاق، ينطلق الحد من عين وادي طين زواطن ويتبع غرباً خط حوض تيلمسي حتى عين وادي انغودن ثم يواصل غرباً إلى ملتقى مصبي وادي أنغودن ووادي أنكاوان حتى النقطة من خط المياه الذي تقطعه طريق الاكوك ـ أبوكار ـ طين وطاغو صونفات. ومن هذه النقطة يبلغ هذا الخط الحدودي آبار طارمانو (نقطة تقع على الطريق الرابطة بين تاودين وتافيلات ثم يتبع الخط الحدودي الذي رسمه اتفاق يونيو 1905 أي يتوجه نحو رأس النون).

تصبح مراعي وادي أنغودان وروافده تابعة للجزائر، بينما تصبح مراعي وادي أنكاوان وروافده تابعة لإفريقيا الغربية.

غرباً وانطلاقاً من عين وادي طين زاواتن يتبع هذا الخط الحدودي مجرى هذا الوادي على امتداد مائة كلم نحو أسفل ملتقى وادي طين زاوا وبعد أن يغادر وادي طين زواتين، يتوجه متبعاً خطاً مستقيماً نحو رأس تاسيلي في الهوغار الواقع على بعد 15 كلم جنوب آبار عين غوزان. ثم يتبع بعد ذلك المنحدرات الجنوبية لسلسلة جبال تاسيلي في الهوغار حتى آبار أزلاق التي تبقى تابعة للجزائر. أما المنطقة الواقعة بين هذه الآبار وبين آبار عين أزاوا فتبقى تابعة لإفريقيا الغربية.

أما شرق عين أزاوا فيتحول هذا الحد إلى خط مستقيم يربط بين عين أزاوا وبين النقطة التي يقطع فيها الحد الطرابلسي الطريق الرابطة بين غات وجادو مروراً بعين أزام.

وكما قد نص على ذلك في اتفاق يونيو 1905 في الفقرة الختامية ستحدد

بدقة حالما تسمح بذلك المعارف الجغرافية والتوبوغرافية مواقع الآبار... سيتركها هذا الخط الحدودي شرق طين زواتين لإحدى المستعمرتين.

2 ـ القبائل أو العشائر التابعة لإحدى المستعمرتين:

بعد المعلومات الاستطلاعية والجولات العديدة في كل هذه المناطق من إفريقيا (إزبين، الهوغار وأدرار) بدا أنه من الضروري العمل بدقة على تصنيف القبائل والعشائر والعائلات التابعة لإحدى المستعمرتين حتى لا توجد في الصحراء قبائل لا تنتمي إلى إحدى المستعمرتين.

في إزبين

قوم أكروموان ـ زعيمهم قدادة

قوم اسوكناتن ـ زعيمهم أوانالة وابنه أوسليم.

قوم طفش أنفيس ـ زعيمهم أهر ـ أريبا.

قوم أكلان أنطاسيت ـ زعيمهم أباراساني

قوم كلرافسا ـ زعيمهم كلتهامان

قوم أرالام ـ زعيمهم أوديني

كل هؤلاء القوم هاجروا منذ 150 سنة من الهوجار وأصبحوا جزءاً لا يتجزأ من قبائل إقليم أزبين الذي يعتبر من الأراضي العسكرية التابعة للنيجر. إنهم بدءوا حتى في دفع الضرائب.

في أدرار

يقيم قوم كلفينيري في الأراضي العسكرية للنيجر، لكن بعض بطونهم تابعة للهوجار؛ ذلك أنهم استقروا منذ زمن طويل في الأراضي الجزائرية وأصبحوا تابعين للجزائر:

الكونتي اغ أورزمير

أولاد بارلي

أبوتيناتام ـ أولاد شكري

أولاد مصطفى

دغالا

أولاريلي اغ منيما

بيكا آل القبيل

اريغيناتن ـ بتيل اغ أنشيلان

بيدي اغ زارنغا

3 ـ قواعد الانتجاع:

طبقاً للمعلومات المتوفرة، من المعروف أن سكان الهوجار يضطرون عقب الجفاف الشديد إلى النزوح جنوباً لضمان المرعى لدوابهم وماشيتهم لذلك ينبغي أن تترك لهم الحرية في ذلك لكن من الضروري تنظيم شروط هذا الانتجاع.

عندما يتضح بعد فترة من الجفاف أنه من الضروري النزوح نحو الجنوب يطلع الملازم الأول في مركز الهوجار الحاكم العسكري لأراضي النيجر على هذه الضرورة ويبيّن له:

أ ـ أسماء القبائل أو العشائر المضطرة إلى البحث عن مراع في الجنوب.

ب ـ اسم الزعيم المحلي الذي سيكون مسؤولاً تجاه سلطات الأراضي العسكرية للنيجر عن تصرف هؤلاء القوم. كما أنه يضمن دفع رسوم الرعي وحراسة المهاجرين.

ج ـ المنطقة التي سيستقر بها هؤلاء المهاجرون.

ويجيب حاكم أراضي النيجر على هذا الطلب بترخيص شريطه الا نان بذلك مواشي البدو في الأراضي العسكرية للنيجر، وفي هذه الحالة ينبغي لهذا الحاكم أن يعيّن موقعاً آخر لهذه المراعي.

بعد أن يحصل على هذا الترخيص يرافق الزعيم المحلي المسؤول المهاجرين إلى المنطقة المعيّنة ويتوجهون رأساً إلى قائد المركز الذي يعيّنه حاكم أراضي النيجر.

رسوم الرعي

يتم الإبقاء على مبدأ تسديد رسوم الرعي. لكن بما أن هذا النزوح تقتضيه ضرورات الوضع البائس للمواشي فإن الحاكمين العسكريين يقترحان:

أ - أن يدفع رسم الرعي فضة حسب تسعيرة غاوو.

ب - أن يخفّض رسم الرعي بنسبة النصف كإجراء متسامح أي:

- واحد من ثمانين عن الماعز والضأن.
- واحد من 120 عن الحمير والأبقار.
- واحد من 200 عن الإبل.

كذلك تطبق هذه القواعد على انتجاع بدو أراضي النيجر في الأراضي الجزائرية.

يطرد كل المهاجرين الذين لا يراعون هذه القواعد من الأراضي التي انتقلوا إليها، وتخطر بذلك سلطات أراضيهم الأم التي تتخذ ضدهم الإجراءات التأديبية التي تراها مناسبة.

متابعة الغزوات

تتم ممارستها وفقاً لتعليمات رسالة رئيس مجلس الوزراء ووزير الداخلية المؤرخة في 21 من يوليو 1908.

الأسلحة

يقضي المبدأ المتعارف عليه بأن يستحضر كل رجل يحمل سلاحاً ترخيصاً تمنحه سلطة الأراضي الأصلية؛ لذلك يجرّد كل رجل من سلاحه عند التعرض له في أراضي المستعمرتين إذا لم يكن معه ترخيص بحمل السلاح. وإذا كان الأمر يشمل سلاحاً حربياً ينبغي لقائد المركز الذي صادر السلاح أن يحدد ذلك ويذكر الأرقام المسجلة على هذا السلاح المصادر. وبهذه الطريقة نستطيع أن نتأكد من أن السلاح المصادر قد أعيد إلى صاحبه أو أنه جاء عن طريق السرقة.

إجراءات انتقالية

ينبغي باديء ذي بدء لنجوع طوارق الأراضي الجزائرية التي تقيم حالياً في أراضي النيجر أن تنسحب من هذه الأخيرة، وقد فرض عليهم هذا الإجراء حتى يدركوا سوء تصرفهم تجاه ضباط المستعمرتين.

لكن نظراً لتقدم الموسم تمنح لهم مهلة حتى 31 من أكتوبر 1909 لكي ينسحبوا ويعودوا إلى بلادهم. كذلك يبدأ العمل في تنفيذ إجراء المطالبة برخصة حمل السلاح ابتداء من 31 من أكتوبر وذلك حتى يوفر لسلطات الأراضي الجزائرية الوقت الكافي لتنسجم مع هذه القواعد.

نيامي يوم 30 من يونيو 1909

العميد لابرين الحاكم العسكري
لأراضي الواحات
التوقيع: لابرين

المقدم فينال الحاكم العسكري
لأراضي النيجر
التوقيع: فينال

ملحق رقم (2)

عدد المدارس القرآنية في مستعمرة النيجر

الدوائر	المدارس							التلاميذ						
	1914	**1915**	**1916**	**1917**	**1918**	**1919**	**1920**	**1914**	**1915**	**1916**	**1917**	**1918**	**1919**	**1920**
نيامي	-	77	63	59	80	60	45	-	269	232	153	247	177	198
زاندار	418	534	489	277	354	384	354	1980	2453	2078	1083	1360	1300	1456
طاهوا	141	348	344	340	315	320	453	1006	1379	1547	1400	1438	1500	1869
انغيغمي	27	59	55	50	53	26	35	138	231	220	200	175	103	138
غوري	281	150	154	112	81	89	65	1225	750	399	367	269	313	270
أغاداس	55	56	44	44	-	8	11	865	1006	605	605	-	149	224
بيلما	-	8	8	8	11	13	11	-	170	135	140	140	200	175
	922	1239	1157	890	894	900	910	4213	5258	5210	3954	3629	3741	4321

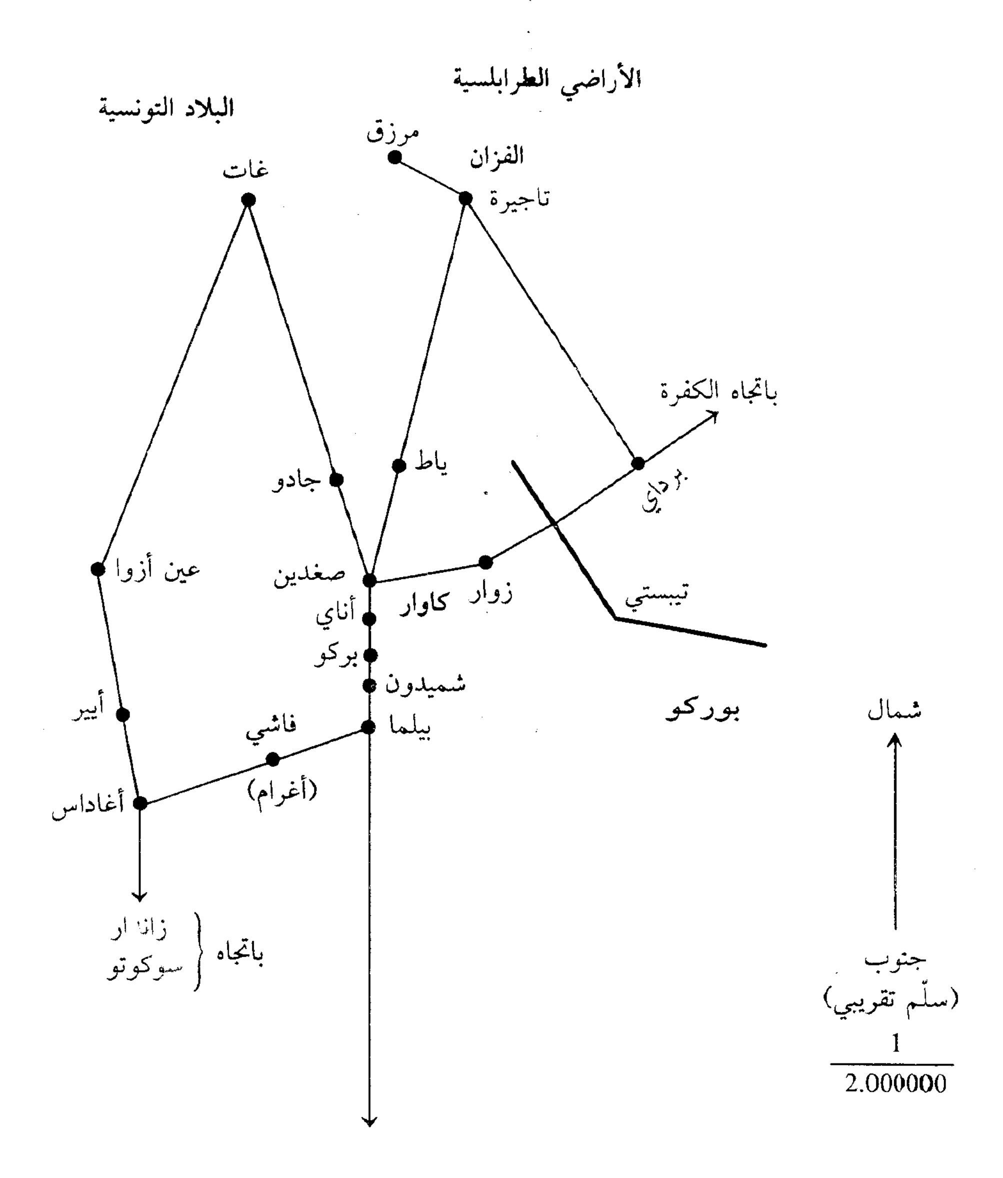
ملحق رقم (3)

إحصاء رجال دين في مستعمرة في النيجر
(إحصاء عام 1920)

الدوائر	القادرية	التيجانية	السنوسية	الشاذلية	التابية
دائرة زاندار	91	169	4	3	1
دائرة نيامي	15	62	–	–	–
دائرة تاهوا	450	8	–	–	–
دائرة غوري	105	74	5	–	–
دائرة انغيغمي	15	35	–	–	–
دائرة أغاداس	88	–	3	–	–
دائرة بيلما	12	5	9	–	–
المجموع	**771**	**332**	**21**	**3**	**1**

ملحق رقم (4)

رسم لإقليمي كاوار - تيبستي



المحتويـــات

ملحقات

